أجراس الخطر

مهارات و فنون التعامل مع الآخرين

د. ماجد رمضان

دار البيان
AL-BAYAN

أجراس الخطر!

مهارات وفنون التعامل مع الآخرين

د. ماجد رمضان

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/١٣٣٣٦
الترقيم الدولي: I.S.B.N
978-977-6332-31-7

مركز السلام للتجهيز الفني
عبد الحميد عمر
٠١٠٦٩٦٢٦٤٧

DAR
AL-BAYAN
٢٥ ش معمل الألبان * أبو وافية أمام مركز شباب الساحل
ت: ٢٤٣٢٤٨٣٤ — ٠١٧٦١١٧٤١٤
Email: albayan_2009@yahoo.com

إهـــــداء

إلى إخوة لى أحبهم.

وأنا مدين لهم بالكثير.

ويعرفون أنهم هم المقصودون

خذوا بعلمى وإن قصرت فى عملى

ينفعكم علمى ولا يضركم تقصيرى

د. ماجد رمضان

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

أما بعد..

إن من نعم الله على الإنسان أن جعله اجتماعيا بطبعه يحتاج إلى الآخرين ويحتاج إليه الآخرون، فالعلاقة بين البشر علاقة دائمة ومستمرة، بل هى ضرورة بشرية، إذ يصعب على الإنسان وربما يستحيل عليه الانكفاء على الذات والاستغناء عن الآخرين.

وما المرء إلا بإخوانه ... كما تفيض الكف بالمعصم
ولا خير فى الكف مقطوعة ... ولا خير فى الساعد الأجذم

ولقد أقام الإسلام العلاقة بين أبناء مجتمعه على دعامتين أصيلتين: أولاهما، دعامة الأخوة التى هى الرباط الوثيق بين بعضهم البعض، والثانية: صيانة الحقوق والحرمات التي حماها الإسلام لكل فرد منهم من دم وعرض ومال، وكل قول أو عمل أو سلوك فيه عدوان على هاتين الدعامتين أو خدش لهما، يحرمه الإسلام تحريما يختلف فى الدرجة على

حسب ما ينجم عنه من ضرر مادى أو معنوى، والتعامل مع الآخرين مهارة لا يحسنها كثير من الناس فقد يقع الفرد فى خطأ حين ينفلت من تطبيق هذه القواعد، ويندفع بهواه وغروره إلى مالا طاقة له به أو إلى مالا علم له به، أو إلى فتنة تضيق أو تتسع.

وهذه الأخطاء والأخطار قد تبدو بسيطة للوهلة الأولى ولكنها تمتد حتى تصبح مدمرة لحياة الفرد نفسه قبل أن تدمر علاقاته مع الآخرين، فرب كلمة طائشة تخرج من الفم تفسد صفاء العلاقة بين أخوين متحابين، ورب تصرف أو سلوك أهوج غير محسوب نتائجه يؤدى إلى تنافر وصدام وقطع للعلاقات، لذا ينبغى أن يكون الفرد على حذر ويقظة دائمتين عند تعامله مع الآخرين لأن الوصول إلى القلوب والظفر بمحبة الناس غنيمة ونعمة جليلة لا يجب التفريط فيها أو التنازل عنها.

فاحرص على حفظ القلوب من الأذى ... فرجوعها بعد التنافر يصعب
إن القلوب إذا تنافر ودها ... مثل الزجاجة كسرها لا يجبر

ومن المعلوم أن الإنسان إذا أراد أن يصل إلى أى مدينة سلك طريقا قد يكون طويلا أو قصيرا، وقد تتفرع منه دروب ضيقة، وانعطافات حادة، وربما تعرض فى طريقه إلى مزلقانات وبوابات تمنع المرور عبر الخطوط الحديدية، وقد يرى علامات تحذيرية حمراء، وإشارات للأخطار فمنها من يرسم له خطا عموديا وسط مثلث تطلب منه الانتباه، وأخرى خطا أفقيا أبيض وسط دائرة حمراء يمنعه الدخول، وثالثة سهما منكسرا بجوار سهم مستقيم مشطوبا بخط أحمر يمنعه تجاوز من أمامه.

فكل سائر يلتزم هذه التعليمات ويتبع هذه الإشارات واللافتات لابد وأن يصل إلى مراده وغايته آمنا سالما.

وطريق بناء العلاقات الإنسانية ومد الجسور بين القلوب طريق طويل، وعر يمتلئ بالدروب الضيقة والانعطافات المهلكة والعوالق الخفية المعرقلة ولا سبيل للنجاة بعبوره إلا أن يعلم السالك طرق النجاة وأساليب الفوز والوصول إلى الغاية والهدف، فلا يبالى بالأشواك التى تدمى يديه حتى يصل إلى الزهور، ولايلتفت للأمواج التى تكاد تغرقه

فيتعلم السباحة وكيفية مغالبتها لترسو سفينته على مرفأ الأمان.

فكان من الضرروى أن نضيء الطريق بأنوار ساطعة لنبدد الظلمات الحالكة، ونضع لافتات إرشادية جاذبة هادية للضال، وندق الأجراس لتنبه الغافل ليستفيق وللنائم ليستيقظ قبل أن تدهمه الأخطار وتعوقه الصعاب.

وفى هذا الكتاب حاولت أن أدق الأجراس بتناول بعض القواعد التى ينبغى أن ينتبه لها كل إنسان حتى يستطيع أن يكسب مودة وحب الآخرين، ويقى نفسه مصارع السوء الناتجة عن التعامل غير الموفق مع الناس، ولأن هذا الموضوع من أكثر الموضوعات أهمية وصعوبة فى الوقت نفسه لأنه يتعامل مع النفس البشرية المعقدة.

والنفس البشرية مجموعة من النزعات والدوافع المختلفة، وقد ركبت فيها الشهوات الجامحة والنزعات والغرائز، ثم إن فى النفس مكامن للشعور تستثار فتثور، وقد تمور فى النفس انفعالات لا يضبطها ويأخذ بلجامها شيء مثل الأخلاق الفاضلة المؤسسة على أوامر ربنا والمنبثقة من هدى رسولنا، والمنطلقة من نبع ما أخرجته العلوم والدراسات الحديثة المتمثلة فى مهارات العلاقات العامة ومهارات التعامل مع الآخرين.

وتخيل أنك أردت أن تمسك بكمية من الرمال، فإذا أمسكت بها بيدٍ مرتخية و منبسطة ستظل الرمال بين يديك، وإذا قبضت يدك وضغطت عليها بشدة لتحافظ على الرمال سالت من بين أصابعك، وقد يبقى منها شيء في يدك ولكنك ستفقد معظمها!!

و العلاقات الإنسانية بينك وبين الآخرين ما هي إلا كهذه الرمال، فإذا أمسكتها دون إحكام محافظًا على مشاعر وحقوق الآخر فغالبًا ما تستمر العلاقة كما هي، ولكن إذا أحكمت قبضتك على العلاقة رغبة في السيطرة والتدخل فى شئون الآخرين فإن العلاقة ستأخذ في التلاشي إلى أن تفقدها نهائيًا.

ومن هنا كانت الحاجة إلى إظهار وتحديد هذه الضوابط الأخلاقية فى مسارات وعلاقات وتفاعلات الحياة الاجتماعية أمرًا ضروريا لا غناء لنا عنه.

كتبت وقد أيقنت يوم كتابتى ... بأن يدي تفنى ويبقى كتابها
فإن عملت خيرا ستجزى بمثله ... وإن عملت سوءا عليها حسابها

فإن أفلحت فيما قدمت فذلك فضل الله على، فله الحمد والشكر، وإن كانت الأخرى فحسبي أنني حاولت، وما أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

د. ماجد رمضان

يونيه ٢٠٠٩

إذا أردت أمرا فلا تعجلن

وإلا ندمت على فعله

فما عثرة المرء تناله

إذا كان يمشى على مهله

يحكى أن شخصا كان يعيش فى كوخ فى غابة مع طفله الرضيع وكلبه القوى الأمين الذى يعتمد عليه فى حراسة بيته وطفله وزرعه، وفى يوم من الأيام ترك هذا الشخص طفله الرضيع فى حراسة الكلب وذهب لقضاء بعض حوائجه التى تتطلب وقتا طويلا لقضائها، ولما عاد وجد الكلب بالخارج ينتظره وفمه ملوثا بالدم، فما كان منه إلا أن تناول بندقية الصيد الخاصة به وصوبها نحو الكلب، وأطلق منها رصاصات قتلت الكلب فى الحال، ولما دخل بيته وجد طفله سليما معافى، يلعب وبجواره ذئب ميت، ففهم سر الدماء التى كانت على فم الكلب ولكن بعد فوات الأوان، وكان أول ما تبادر إلى ذهنه أنه أكل طفله، فندم وبكى على كلبه الذي قتله خطأ بتسرعه واستعجاله.

وتحقق فيه قول القائل:

تأن ولا تعجل بلومك صاحبا لعل له عذرا وأنت تلوم

هذه القصة، تذكرنا بحوادث كثيرة في حياتنا، كنا في أحيان ظالمين وفي أحيان مظلومين،ونحن نرى فى علاقاتنا بالآخرين كثيرًا منا يتسرع فى إصدار الأحكام، وفى قطع العلاقات والحكم على كثير من الأمور فى المواقف التى تحتاج إلى روية وهدوء أعصاب ويتصرفون باندفاع وتهور، ثم يندمون بعد ذلك على التسرع والتعجل.

يروى ستيفن كوفي صاحب كتاب كيف تؤثر فى الناس وتكسب الأصدقاء أنه في صباح أحد الأيام ركب قطار الأنفاق بمدينة نيويورك، وكان الركاب جالسين في سكينة، بعضهم يقرأ الصحف وبعضهم مستغرق بالتفكير،وآخرون في حالة استرخاء، كان الجو ساكنًا مفعمًا بالهدوء، وفجأة صعد رجل بصحبة أطفاله، الذين سرعان ما ملأ ضجيجهم

وهرجهم عربة القطار، جلس الرجل إلى جانبي وأغلق عينيه غافلًا عن الموقف كله، كان الأطفال يتبادلون الصياح ويتقاذفون بالأشياء، ويجذبون الصحف من الركاب وكان الأمر مثيرًا للإزعاج، ورغم ذلك استمر الرجل في جلسته إلى جواري دون أن يحرك ساكنًا!! لم أكن أصدق أن يكون على هذا القدر من التبلد، والسماح لأبنائه بالركض هكذا دون أن يفعل شيئًا! يقول (كوفي) بعد أن نفد صبره، التفت إلى الرجل قائلًا: إن أطفالك ياسيدي يسببون إزعاجا للكثير من الناس، وإني لأعجب إن لم تستطع أن تكبح جماحهم أكثر من ذلك..!!؟ إنك عديم الإحساس، فتح الرجل عينيه.كما لو كان يعي الموقف للمرة الأولى وقال بلطف:نعم إنك على حق، يبدو أنه يتعين علي أن أفعل شيئًا إزاء هذا الأمر، لقد قدمنا لتونا من المستشفى حيث لفظت والدتهم أنفاسها الأخيرة منذ ساعة واحدة، إنني عاجز عن التفكير.وأظن أنهم لا يدرون كيف يواجهون الموقف أيضًا يقول (كوفي):تخيلوا شعوري آنئذ؟ فجأة امتلأ قلبي بآلام الرجل وتدفقت مشاعر التعاطف والتراحم دون قيود، قلت له: هل ماتت زوجتك للتو؟ أنني آسف هل يمكنني المساعدة؟؟

لقد تغير كل شيء في لحظة، فكم نظلم أنفسنا حين نظلم غيرنا في الحكم السريع المبني على سوء فهم وبدون أن نبحث عن الأسباب التي أدت إلى تصرف غير متوقع من إنسان قريب أو بعيد في حياتنا وسبحان الله، يوم تنكشف الأسباب، وتتضح الرؤية، نعرف أننا أخطأنا فى حكمنا الذى نصدره بدون معرفة التفاصيل .

والواجب على الفرد أن يتريث، ويعطى لنفسه فرصة لأن يفكر فى الأمر يقول الله تعالى:

﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، الحكمة تعنى العلم المقترن بأسرار الأشياء وغاياتها، وتعنى باتباع أحسن الطرق وأفضل الأساليب للوصول للغاية المرجوة، وتعنى بإنزال القول على موضعه، ويقصد بالحكمة هنا التأكد من صحة الشيء وثبوته، وعدم التسرع فى الحكم على الأمور قبل أن يتاكد من صحتها، ووصف الشاعر

عاقلا حكيما بقوله:

بصير بأعقاب الأمور كأنما تخاطبه فى كل أمر عواقبه

وقيل: فى التأنى السلامة وفى العجلة الندامة.

ووصى أعرابى بنيه قائلا لهم: إياكم والعجلة فإن أبى كان يكنيها: أم الندم.

ومن أمثال العرب: رب عجلة تهب ريثا.

فالأناة تسمح للفرد أن يحكم أموره ويضع الأشياء فى مواضعها، بخلاف العجلة فإنها تعرضه للكثير من الأخطاء والإخفاق، وتعرضه للتعثر الشديد والارتباك، ثم تعرضه للتخلف من حيث السبق ومن استعجل الأمر قبل أوانه عوقب بحرمانه، وصدق القائل: أخطا متعجل أو كاد، وأصاب متثبت أو كاد.

فيحكى أن سجينا أطلق سراحه بعد أن قضى سنين عددا فى السجن، فرأى النور الذى منع منه ورأى الحياة بصخبها وضجيجها بعد العزلة والقيود التى ضربت حوله، فالتفت السجين حوله مرات ومرات فشعر بعدم راحة وتأقلم فطالب بإرجاعه إلى السجن حيث يظن إنه توجد منطقة راحته، وهذا السجين الذى تعجل ولم يتريث ليجرب ويرى الحياة الجديدة ليحكم عليها بعد ذلك يصدق فيه قول الشاعر:

قد يدرك المتأنى بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

دخل صبي يبلغ من العمر ١٠ سنوات الى مقهى، وجلس على الطاولة، فوضعت الجرسونة كأسًا من الماء أمامه، فسأل الصبي: بكم آيس كريم بالكاكاو؟ أجابته: بخمس دولارات. فأخرج الصبي يده من جيبه وأخذ يعد النقود، فسألها مرة أخرى: حسناً وبكم الآيس كريم لواحدة فقط بدون كاكاو؟ في هذه الأثناء كان هناك الكثير من الزبائن ينتظرون خلو طاولة في المقهى للجلوس عليها، فبدأ صبر الجرسونة بالنفاذ، فأجابته بفظاظة: بـ أربع دولارات، فعد الصبي نقوده وقال: سآخذ الآيس كريم العادي،

فأحضرت الجرسونة له الطلب، ووضعت فاتورة الحساب على الطاولة وذهبت، أنهى الصبي الآيس كريم ودفع حساب الفاتورة وغادر المقهى،وعندما عادت الجرسونة إلى الطاولة اغرورقت عيناها بالدموع أثناء مسحها للطاولة،حيث وجدت بجانب الطبق الفارغ دولارا واحدا، أتدرون لماذا؟ لقد حرم الصبي نفسه من الآيس كريم بالكاكاو حتى يوفر لنفسه دولارًا يكرم به الجرسونة.

فكم مرة في حياتنا كنا نظن بكل ثقة ويقين بأن شيئا ما يحصل بالطريقة الصحيحة التي حكمنا عليه بها، ولكننا نكتشف متأخرين بأن ذلك لم يكن صحيحا.

وكم مرة جعلنا فقد الثقة بالآخرين والتمسك بآرائنا هى المرجع الوحيد للحكم عليهم بعيدا عن الحق والصواب.

هذا هو السبب الذي يجعلنا نفكر مرتين قبل أن نحكم على الآخرين ونعطي الآخرين آلاف الفرص قبل أن نحكم عليهم بطريقة سيئة.

فقد قال ابن سيرين رحمه الله: «إذا بلغك عن أخيك شيء فالتمس له عذرًا، فإن لم تجد فقل: لعل له عذرًا لا أعرفه».

ومما يروى عن لقمان أنه قال: إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة.

ولقد جاء عن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وأرضاه أنه كان يقول لقاضيه: إذا جاءك أحد الخصمين وقد فقئت عينه فلا تحكم له حتى يحضر الخصم الآخر فلعله قد فقئت عيناه معا.

إن الأناة والتثبت صفة جميلة وحميدة يحبها الله، وتكون أجمل إذا اتصف بها القادر على العقاب واتخاذ القرار لهذا قال الشاعر:

وكل أناة فى المواطن سؤدد ... ولا كأناة من قدير محكم
ومن يتبين أن للصفح موضعا ... من السيف يصفح عن كثير ويحلم
وما لرأى إلا بعد طول تثبت ومن ... ولا الحزم إلا بعد طول تلوم

والتلوم: الانتظار أو التأنى فى الأمر.

وفى قصة سليمان عليه السلام مع الهدهد مايدل على ذلك يقول سبحانه وتعالى ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ۞ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أو لأَذْبَحَنَّهُ أو لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل ٢٠-٢١].

نجد سليمان عليه السلام الملك الحازم يتهدد الجندى (الهدهد) الغائب المخالف بقوله: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أو لَأَذْبَحَنَّهُ أو لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾.

ولكن سليمان عليه السلام ليس ملكا جبارا فى الأرض إنما هو نبى وهو لم يسمع بعد حجة الهدهد الغائب، فلا ينبغى أن يقضى قضاء نهائيا قبل أن يسمع منه ويتبين عذره، ومن ثم تبرز سمة النبى العادل ﴿أو لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾.

وهذه نملة حشرة صغيرة، لا تملك من القوة والعقل ما يمتلكه الإنسان، انظر لحسن أدبها، ورجاحة عقلها،وحسن ظنها، والتماسها العذر لما رأت نبي الله سليمان عليه السلام وجنوده،قال الله سبحانه تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

قالت: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فقد التمست لبني الإنسان عذرًا، لتحطيمه لها، لدقة حجمها، واستحالة رؤيتها في حال انشغاله عنها بما هو أعظم، بينما نرى من بني البشر اليوم، من لا يلتمس لأخيه المسلم عذرًا، ويتسلط عليه بإساءة الظنون، والتفتيش عن النوايا.

وقد قال النبى ﷺ للأشج ﷺ رئيس قبيلة عبد قيس: إن فيك لخصلتين يحبهما الله: **الحلم والأناة.**

فحلم الحليم حصانة له ضد الافتتان، يعصمه من الغضب والانتصار للنفس فيلزم العدل فى أحكامه، وأما تأنى المتأنى فأظهر فى تأديته إلى العصمة، يمنح فرصة للتأمل والقياس فيزول الالتباس، وقد نبهنا الله عز وجل لقاعدة مهمة تحكم علاقاتنا الإنسانية فى قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

وهذه الآية قاعدة أساسية تحفظ العلاقات بين الأفراد من قالة السوء أو فرية يريد قائلها الوقيعة وقطع الصلات.

فالتثبت من كل خبر، والتمهل عند كل ظاهرة، والتريث قبل كل حركة، وعدم الاستعجال قبل الحكم على الأمور هو دعوة القرآن ومنهج الإسلام.

إنها أمانة الجوارح والحواس والعقل والقلب، أمانة يسأل عنها صاحبها، أمانة يرتعش الوجدان لدقتها وجسامتها كلما نطق اللسان بكلمة، أو روى الإنسان رواية، وكلما أصدر حكما على شخص أو أمرًا أو حادثة.

فقد ورد عن النبى ﷺ ما يأمرنا بحفظ اللسان وعدم إطلاقه ليتكلم بما ليس متاكدا منه أو فيه إيذاء الآخرين.

عن أبى موسى ﷺ قال: قالوا: يارسول الله أى الإسلام أفضل؟ قال: «**من سلم المسلمون من لسانه ويده**» البخاري.

وعن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة مايتبين مافيها يهوى بها فى النار أبعد ما بين المشرق والمغرب**» البخاري ومسلم.

ويقول عمر بن الخطاب: ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيرًا وأنت تجد لها فى الخير محملا.

وأورد الماوردى رحمه الله قول مقاتل بن حيان فى تفسير قوله تعالى: ﴿**إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**﴾ فقال مقاتل: «وأن يتكلم بما ظنه فيكون إثما فإن لم يتكلم به لم يكن إثما».

فإن من القواعد الأساسية التى ينبغى للمسلم أن ينتبه إليها قبل أن يثير أى شبهة أو أن يتقبل ويصدق أى تهمة هى أن يقدم حسن الظن بالآخرين قبل أن يسىء الظن بهم، وأن يبحث لهم عن الأعذار والمبررات التى تبرىء ساحاتهم.

ولو انقلب الأمر وأصبح سوء الظن مقدم على حسن الظن لما بقى إنسان دون طعن، ولا شريف دون انتقاص، ولحرم المجتمع من قدوته، ولذلك فهذا منهج لايقره شرع ولا يقبله عقل.

وأمر المسلم- فى الأصل- قائم على الستر وحسن الظن ولذلك أمر الله عز وجل المؤمنين بحسن الظن عند سماعهم القدح فى إخوانهم المسلمين.

ففى حادثة الإفك، عندما قيل ما قيل، بين الله عز وجل الموقف الصحيح الذى ينبغى لكل مسلم أن يفقهه فقال سبحانه وتعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ [النور: ١٢].

ولأن تحسن الظن فتندم خير من أن تسىء الظن فتندم، ولقد نهى الإسلام عن الظن والتعامل به لما فيه من عدم التيقن والتثبت المطلوب لاتخاذ الموقف المطلوب فى التعامل سواء أكان قولا أو عملا، وصدق القائل:

وإذا تشاجر فى فؤادك مرة ... أمران فاعمد للأعف الأجمل

وإذا هممت بأمر سوء فاتئد ... وإذا هممت بأمر خير فافعل

قال تعالى وهو ينكر موقف من يعتمد على الظن ولا يرضى إلى موقف الحقيقة ليعامل بها ومعها: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٣٦]، وحذر المؤمنين فقال لهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

فهذه الآية تقيم سياجًا حول حرمات الأشخاص وكراماتهم وحرياتهم وتعلمهم كيف ينظفون مشاعرهم وضمائرهم، فهى تأمرهم باجتناب الظن فلا يتركوا نفوسهم نهبا

للآخرين من ظنون وشبهات وشكوك، وبهذا يطهر الضمير الإنسانى من داخله أن يتلوث بالظن السيئ فيقع فى الإثم، ويدعه نقيا بريئا من الهواجس والشكوك، أبيض يكن لإخوانه المودة التى لا يخدشها ظن السوء، والبرأة التى لاتلوثها الريب والشكوك، والطمأنينة التى لايعركها القلق والتوقع.

صحيح أن سوء الظن من الأشياء التي لا يكاد يسلم منها أحد- كما روي ذلك في حديث ضعيف- ولكن يقويه ما ثبت في الصحيح قول النبي ﷺ لبعض الصحابة الذين رأوه في الاعتكاف يكلم امرأة عند المسجد، فأسرعا الخطا فقال ﷺ: «**على رسلكما إنها صفية بنت حيي**» زوجته فقالا: وهل نظن بك إلا خيرا يا رسول الله؟ قال: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، ولأني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرا**». ومع هذا ينبغي للمؤمن أن لا يستسلم لوسوسة الشيطان في إساءة الظن بالمسلمين، بل عليه أن يلتمس لهم المعاذير والمخارج فيما يراهم أخطأوا فيه؛ بدل أن يطلب لهم العثرات والعيوب.

ومن الطرائف فى هذا الموضوع ما قاله المغيرة بن شعبة: ما غلبنى أحد إلا غلام من بنى الحارث بن كعب وذلك أنى خطبت امرأة من بنى الحارث، وعندى شاب منهم، فأصغى إلى فقال: يا أيها الأمير لا خير لك فيها فقلت: يا ابن أخى ومالها؟ قال: رأيت رجلا يقبلها، قال: فبرئت منها، فبلغنى أن الفتى تزوجها، فأرسلت إليه فقلت: ألم تخبرنى أنك رأيت رجلا يقبلها، قال: نعم رأيت أباها يقبلها.

وصدق القائل:

فبعض الأمر تصلحه ببعض ... فإن الغث يحمله السمين
ولا تعجل بظنك قبل خبر ... فعند الخبر تنقطع الظنون
ترى بين الرجال العينُ فضلا ... وفيما أضمروا الفضل المبين
كلون الماء مشتبها وليست ... تخبر عن مذاقته العيون

فليس أريح لقلب العبد في هذه الحياة ولا أسعد لنفسه من حسن الظن، فبه يسلم من أذى الخواطر المقلقة التي تؤذي النفس، وتكدر البال، وتتعب الجسد.

وإن حسن الظن يؤدي إلى سلامة الصدر وتدعيم روابط الألفة والمحبة بين أبناء المجتمع، فلا تحمل الصدور غلاً ولا حقدًا، امتثالًا لقوله ﷺ: «**إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا**».

ومن الأسباب المعينة على حُسن الظن:

١) الدعاء:

فإنه باب كل خير، وقد كان النبي ﷺ يسأل ربه أن يرزقه قلبًا سليمًا.

٢) إنزال النفس منزلة الغير:

فلو أن كل واحد منا عند صدور فعل أو قول من أخيه وضع نفسه مكانه لحمله ذلك على إحسان الظن بالآخرين، وقد وجه الله عباده لهذا المعنى حين قال سبحانه: ﴿**لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا**﴾ [النور:١٢]. وأشعر الله عباده المؤمنين أنهم كيان واحد، حتى إن الواحد حين يلقى أخاه ويسلم عليه فكأنما يسلم على نفسه: ﴿**فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ**﴾ [النور:٦١].

٣) حمل الكلام على أحسن المحامل:

هكذا كان دأب السلف رضي الله عنهم. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا تظن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن شرًّا، وأنت تجد لها في الخير محملًا».

وانظر إلى الإمام الشافعي رحمه الله حين مرض وأتاه بعض إخوانه يعوده، فقال للشافعي: قوى الله ضعفك، قال الشافعي: لو قوى ضعفي لقتلني، قال: والله ما أردت إلا الخير. فقال الإمام: أعلم أنك لو سببتني ما أردت إلا الخير. فهكذا تكون العلاقة الحقيقية إحسان الظن بالآخرين حتى فيما يظهر أنه لا يحتمل وجها من أوجه الخير.

٤) التماس الأعذار للآخرين:

فعند صدور قول أو فعل يسبب لك ضيقًا أو حزنًا حاول التماس الأعذار، واستحضر حال الصالحين الذين كانوا يحسنون الظن ويلتمسون المعاذير حتى قالوا: التمس لأخيك سبعين عذرًا.

وقال ابن سيرين رحمه الله: إذا بلغك عن أخيك شيء فالتمس له عذرًا، فإن لم تجد فقل: لعل له عذرًا لا أعرفه.

إنك حين تجتهد في التماس الأعذار ستريح نفسك من عناء الظن السيئ وستتجنب الإكثار من اللوم للآخرين.

٥) تجنب الحكم على النيات:

وهذا من أعظم أسباب حسن الظن؛ حيث يترك العبد السرائر إلى الذي يعلمها وحده سبحانه، والله لم يأمرنا بشق الصدور، ولنتجنب الظن السيئ.

٦) استحضار آفات سوء الظن:

فمن ساء ظنه بالناس كان في تعب وهم لا ينقضي فضلًا عن خسارته لكل من يخالطه حتى أقرب الناس إليه؛ إذ من عادة الناس الخطأ ولو من غير قصد، ثم إن من آفات سوء الظن أنه يحمل صاحبه على اتهام الآخرين، مع إحسان الظن بنفسه، وهو نوع من تزكية النفس التي نهى الله عنها في كتابه: ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم:٣٢].

وأنكر سبحانه على اليهود هذا المسلك: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء:٤٩].

إن إحسان الظن بالناس يحتاج إلى كثير من مجاهدة النفس لحملها على ذلك، خاصة

وأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، ولا يكاد يفتر عن التفريق بين المؤمنين والتحريش بينهم، وأعظم أسباب قطع الطريق على الشيطان هو إحسان الظن بالآخرين.

فلتحذر أخى الحبيب:

وانتبه واستمع لدقات الأجراس التى تصم الأذن منبهة ومحذرة؛ إياك السقوط فى الهاوية أو تدهمك الأخطار وتعصف بك العواصف والأنواء وتطفىء الأنوار، وتفسد وتقطع العلاقات وتسد الطرق إلى قلوب الآخرين.

فإن أردت أن تنجو وتفوز وتصل إلى غايتك ومرادك فعليك بإحسان الظن وأن تتمهل ولا تتعجل بالحكم بالآخرين

* * *

لا تلتمس من مساوئ الناس ما ستروا
فيكشف الله سترا من مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكـــروا
ولا تعب أحدا منهم بمـــا فيكا

جاء رجل لعمر بن الخطاب ﷺ ذات مرة ظانا أنه يحمل إليه البشرى، فيقول: يا أمير المؤمنين، رأيت فلانا يعانق فلانة وراء النخيل، فيمسك عمر ﷺ بتلابيه ويعلوه بمحفته، ويقول له بعد أن يوسعه ضربا: هلا سترت عليه ورجوت له التوبة .

فإن رسول الله ﷺ قال: «**من ستر على أخيه ستره الله فى الدنيا والآخرة**». ثم يوصى الناس بهذا الفقه العظيم فيقول: «**هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أخا لكم زل زلة فسددوه ووفقوه، وادعوا الله أن يتوب عليه، ولا تكونوا عونا عليه للشيطان**».

فمن طبيعة البشر الخطأ والتقصير، ولم يبلغ أحد منهم الكمال ولم يجعل الله العصمة لغير الأنبياء والمرسلين، لذلك ينبغى لمن يتعامل مع الناس أن يتوقع منهم الزلل والخطأ والتقصير، ويجب عليه ستر هذه العيوب وعدم هتك العورات وهذا نهج الصالحين الكرام أصحاب النفوس السوية والقلوب الطاهرة النقية.

أما أهل السوء فلا يرتاح أحدهم ولا يتلذذ إلا بفضح الآخرين وهتك أستارهم ونشر أسرارهم فتجده لا هم له إلا تتبع زلات الناس وتصيد أخطائهم والصيد فى الماء العكر، فهو كالذبابة لا يقع إلا على القاذورات، ولا يتنفس إلا الهواء الملوث المسموم. ويصح فيه قول الشاعر:

ترى الورود فترى الأشواك حولها و تعمى أن ترى الندى فوقها إكليلا

وفى هذا يقول الإمام الشافعى:

إذا شئت أن تحيا سليما من الأذى وحظّك موفور وعرضك صين
لسانك لا تذكر به عورة أمرئ فكلك عورات وللناس ألسن
وعينك إن أبدت لك مساويا فصنها وقل يا عين للناس أعين
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى وفارق ولكن بالتي هي أحسن

والمجتمع الإسلامى لا يحب أن تشيع الفاحشة فيه، ومن ثم كان الذى يطلق لسانه فى نشر أخبار الفاحشة فى المجتمع آثما كفاعلها سواء، فعن على ابن أبى طالب ﷺ قال:

«القائل الفاحشة والذى يشيع بها سواء» البخارى.

ويريد من الفرد المسلم أن يكون مترفعا عن الصغائر والدنايا،حيى ستير له من خلقه الرصين الذى رباه عليه الإسلام ما يصرفه عن الخوض فى أعراض الناس ويصون لسانه عن المجاهرة بالمعصية، سواء أكانت منه أم سمعها أو رآها من غيره عملا بقول رسول الله ﷺ: «**كل أمتى معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا، ثم يصبح وقد ستره الله عليه، فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله**».

فقد جاء رجل إلى عمر بن الخطاب يستفتيه قائلا: إن ابنتى كانت قد أصابت حدا من حدود الله وأخذت الشفرة لتذبح نفسها، فأدركناها وقد قطعت بعض أوداجها فداويناها حتى برئت ثم تابت بعد توبة حسنة، وهى اليوم تخطب إلى قوم، فأخبرهم بالذى كان؟ فيجيبه عمر ذو الورع الذكى والذكاء الورع: أتعمد إلى ماستره الله فتبديه؟ والله لئن أخبرت بها أحدا من الناس لأجعلك نكالا لأهل الأمصار، اذهب انكحها نكاح العفيفة المسلمة.

فالناس على ضربين:

أحدهما: من كان مستورا لا يعرف بشىء من المعاصى، فإذا وقعت منه هفوة، أو زلة فإنه لايجوز هتكها ولا كشفها ولا التحدث بها، لأن ذلك غيبة محرمة، وهذا هو الذى وردت فيه النصوص ومنها قول الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

والمراد بإشاعة الفاحشة على المؤمن فيما وقع منه واتهم به مما هو برىء منه كما فى حادثة الإفك وقول الرسول ﷺ: «**أقيلوا ذوى العثرات**» أبو داود والنسائي.

والثانى: من كان مشتهرا بالمعاصى معلنا بها ولا يبالى بما ارتكب منها، ولا بما قيل

له، هذا الفاجر المعلن وليس له غيبة كما قال الحسن البصرى وغيره.

وكل ماسبق وغيره يدل على وجوب الستر وترك التتبع فقد قال رسول الله ﷺ لمعاوية ﷺ وأرضاه: «**إنك إن تتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم**» أبو داود.

ويقول أبو بكر الصديق ﷺ: لو وجدت شاربا لأحببت أن يستره الله، ولو وجدت سارقا لأحببت أن يستره الله.

ويقول حبر الأمة عبد الله بن عباس رضى الله عنه: مابلغنى عن أخ مكروه قط إلا أنزلته إحدى ثلاث منازل:

إن كان فوقى عرفت قدره، وإن كان نظيرى تفضلت عليه، وإن كان دونى لم أحفل به، هذه سيرتى فى نفسى فمن رغب عنها فأرض الله واسعة.

وجاء قوم إلى عقبة بن عامر فقالوا: إن لنا جيرانا يشربون ويفعلون أفنرفعهم إلى الامام؟ قال: لا، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من رأى من مسلم عورة فسترها، كان كمن أحيا موؤدة من قبرها**».

فإن طائفة من الناس يفهمون أن إنكار المنكر هو البحث والتنقيب عن عيوب الآخرين وفضحهم أمام الآخرين، وهذا الفهم الخاطىء يجعلهم يستثمرون النقد من غير ضوابط شرعية، لقد زاغت أعينهم بعيدا عن العيب القريب وهو عيوبهم أنفسهم وذهبت أنفسهم تنقب عن العيب البعيد، أو أنها علمت به فتغافلت عنه وانشغلت بعيوب الآخرين وقد حذر عبد الله بن مسعود من هذا الأمر فقال: إن أحدكم يبصر القذاة فى عين أخيه وينسى الجذع فى عينيه.

فإذا وجدت إنسانا همه تصيد الأخطاء وإثارة الشبهات، فاعلم أنه ملىء بالعيوب والنواقص والمثالب، فقد قال رجل للأحنف بن قيس: دلنى على رجل كثير العيوب، فقال الأحنف: اطلب عيابا، فإنما يعيب الناس بفضل ما فيه، ويقول الشاعر:

فأجرأ من رأيت بظهر غيب ... على عيب الرجال ذوو العيوب

وهذا الصنف من الناس يصفهم القائل:

قبيح من الإنسان ينسى عيوبه ... ويذكر عيبا فى أخيه قد اختفى
فلو كان ذا عقل لما عاب غيره ... وفيه عيوب لو رآها بها اكتفى

وسئل رؤبة بن الحجاج: ما أعداء المروءة؟ قال: تخبرن! قال: بنو عم السوء، إن رأوا حسنا ستروه، وإن رأوا سيئا أذاعوه.

وهؤلاء لاينفع معهم إلا التغافل عنهم وعدم الالتفات إلى ما يقولونه أو يذيعونه من أقوال وشبهات كما قال الشافعي:

اعرض عن الجاهل السفيه ... فكل ما قال فهو فيه
ماضر بحر الفرات يوما ... أن خاض بعض الكلاب فيه

ومن طرائف ما يذكر أن أعرابيا أراد أحد الولاة تعزيره ومحاكمته على أمر فاستدعاه وناوله صحيفة دونت فيها جملة من منكراته فقال الأعرابى: هذا والله شر من يوم الحساب. قيل له: كيف؟ قال: فى يوم الحساب ترفع لى حسناتى وسيئاتى، أما اليوم فأرى سيئاتى فقط.

ومعالجة الضعف البشرى لايكون بالتنقيب عن عورات الناس وعيوبهم وفضحهم والتشهير بهم، وإنما يكون بحسن عرض الحق على أسماعهم، وتزيين الطاعة لهم وتكريه المعصية إليهم، دونما تصريح ومواجهة أو مجابهة، فباللين والرفق وحسن التأنى، تفتح مغاليق القلوب، وتخشع الجوارح وتلين النفوس، ومن هنا اشتد رسول الله ﷺ فى تنبيه المسلمين إلى خطورة الولوغ فى أعراض الناس والتنقيب عن عوراتهم مهددا من يستهين بذلك بهتك الستر عنه وفضحه فى جوف بيته فقال: «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لاتغتابوا الناس، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف بيته**» أبو داود والترمذي.

وهكذا يصون الإسلام بتعاليمه الأعراض والكرامات، بل وصل برعاية الحرمات

للناس إلى حد التقديس، وقد نظر عبد الله بن عمر ﷺ يوما إلى الكعبة فقال: ما أعظمك وأعظم حرمتك، والمؤمنون أعظم حرمة منك. (الترمذى)

وحرمة المؤمن تتمثل فى حرمة عرضه ودمه وماله.

وفى حجة الوداع خطب النبى ﷺ فى جموع المسلمين فقال: «**إن أموالكم وأعراضكم ودماؤكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا**».

وقد حفظ الإسلام عرض الفرد من الكلمة التى يكرهها فى غيبته وهى صدق، فكيف إذا كان الكلام افتراء لا أصل له؟! إنها حينئذ حوبا كبيرا، وإثما عظيما ففى الحديث:

«**من ذكر امرأً بشيء ليس فيه ليعيبه به، حبسه الله فى نار جهنم حتى يأتي بنفاذ ما قال فيه**» الطبراني.

وعن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال لأصحابه: «**أتدرون أربى الربا عند الله؟** قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **فإن أربى الربا عند الله استحلال عرض أمرئ مسلم**، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا**﴾ [الأحزاب ٥٨].

وأشد هذا اللون من الاعتداء على الأعراض هو رمى المؤمنات العفيفات بالفاحشة لما له ضرر بالغ بسمعتهن وسمعة أسرهن.

قال أحمد بن مهدي: جاءتني امرأة ببغداد، ليلة من الليالي، فذكرت أنها من بنات الناس، وقالت: أسألك بالله أن تسترني، فقلت: وما محنتك؟! قالت أكرهت على نفسي -أي يبدو أنها اغتصبت-، وأنا الآن حامل، وبما أنني أتوقع منك الخير والمعروف، فقد ذكرت لكل من يعرفني أنك زوجي، وأن ما بي من حمل إنما هو منك فأرجوك لا تفضحني، استرني سترك الله عز وجل.

سمعت كلامها وسكت عنها، ثم مضت. وبعد فترة وضعت مولودًا، وإذا بي أتفاجأ

بإمام المسجد يأتي إلى داري ومعه مجموعة من الجيران يهنئونني ويباركون لي بالمولود. فأظهرت لهم الفرح والتهلل، ودخلت حجرتي وأتيت بمائة درهم وأعطيتها للإمام قائلا: أنت تعرف أنني قد طلقت تلك المرأة، غير أنني ملزم بالنفقة على المولود، وهذه المائة أرجوك أن تعطيها للأم لكي تصرف على ابنها، هي عادة سوف أتكفل بها مع مطلع كل شهر وأنتم شهود على ذلك، واستمررت على هذا المنوال بدون أن أرى المرأة ومولودها. وبعدما يقارب من عامين توفي المولود، فجاءني الناس يعزونني، فكنت أظهر لهم التسليم بقضاء الله وقدره، ويعلم الله أن حزنًا عظيمًا قد تملكني لأنني تخيلت المصيبة التي حلت بتلك الأم المنكوبة.

وفي ليلة من الليالي، وإذا بباب داري يقرع، وعندما فتحت الباب، إذا بي أتفاجأ بتلك المرأة ومعها صرة ممتلئة بالدراهم، وقالت لي وهي تبكي: هذه هي الدراهم التي كنت تبعثها لي كل شهر مع إمام المسجد، سترك الله كما سترتني. حاولت أن أرجعها لها غير أنها رفضت، ومضت في حال سبيلها، وما هي إلاّ سنة وإذا بها تتزوج من رجل مقتدر وصاحب فضل، أشركني معه في تجارته وفتح الله عليّ بعدها أبواب الرزق من حيث لا أحتسب.

فاعلم أخي الحبيب:

أنه بالكيل الذى تكيل به تكال، فمن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة، ومن هتك ستر مسلم سلط الله عليه من يهتك ستره فى الدنيا، ثم يهتك ستره يوم القيامة، فاحرص على ألا تفضح إنسانا بالقول أو بالفعل .

واعلم أن الستر فضل ولا يقدر عليه إلا أصحاب الفضائل، وأن هذا الذى تستره هو أخوك أو أختك وهما منك كمنزلتك من نفسك فانظر ماذا تحب لنفسك؟ وتذكر قول القائل:

يـا هاتكـا حـرم الرجـال وقاطعـا سـبل المـودة عشـت غـير مكـرم
لـو كنـت حـرا مـن سـلالة ماجـد مـا كنـت هتاكـا لحرمـة مسـلم

فلتحذر أخي الحبيب:

وانتبه واستمع لدقات الأجراس التي تصم الأذن منبهة ومحذرة؛ إياك قبل السقوط في الهاوية أو تدهمك الأخطار وتعصف بك العواصف والأنواء وتطفيء الأنوار، وتفسد وتقطع العلاقات وتسد الطرق إلى قلوب الآخرين..

فإن أردت أن تنجو وتفوز وتصل إلى غايتك ومرادك فعليك بحفظ عورة أخيك ولا تهتك ستره.

* * *

وإن الذى بينى وبين بنى أبى

وبــين بنى عمى لمختلــف جــــدا

فإن أكلوا لحمى وفرت لحومهم

وإن هدموا مجدى بنيت لهم مجدا

وإن ضيعوا غيبى، حفظت غيوبهم

وإن هم هووا غيى، هويت لهم رشدا

عن عائشة رضى الله عنها قالت: قلت للنبى حسبك من صفية (زوجة النبى) كذا وكذا – تعنى أنها قصيرة – فقال النبى ﷺ: «**لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته**» أبو داود.

إن الغيبة هى شهوة الهدم للآخرين، هى شهوة النهش فى أعراض الناس وكرامتهم وحرماتهم وهم غائبون، إنها دليل على الخسة والجبن لأنها طعن من الخلف، وهى مظهر من مظاهر السلبية، فإن الاغتياب جهد من لاجهد له، وهى معول من معاول الهدم، لأن هواة الغيبة، قلما يسلم من ألسنتهم أحد بغير طعن، ولاتجريح ولقد أراد الرسول ﷺ أن يحدد مفهومها لأصحابه على طريقته فى التعليم بالسؤال والجواب فقال لهم: **أتدرون ما الغيبة؟** قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **ذكرك اخاك بما يكره**، قيل: أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول؟ قال: «**إن كان فيه ماتقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ماتقول فقد بهته**» مسلم.

فلا عجب إذا صورها القرآن فى صورة منفرة تتقزز منها النفوس، وتنبو عنها الأذواق فقال الله تعالى: ﴿**وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ**﴾ [الحجرات: ١٢] والإنسان يأنف أن يأكل لحم إنسان، فكيف إذا كان لحم أخيه؟ وكيف إذا كان ميتا؟

وقد ظل النبى ﷺ يؤكد هذا التصوير القرآني فى الأذهان، ويثبته فى القلوب كلما لاحت فرصة لهذا التأكيد والتثبيت.

قال ابن مسعود: كنا عند النبى ﷺ فقام رجل (أى غاب من المجلس) فوقع فيه رجل من بعده، فقال النبى لهذا الرجل: **تخلل**، فقال: ومم أتخلل؟ ما أكلت لحما! فقال رسول الله ﷺ: «**إنك أكلت لحم أخيك**» [الطبراني].

وعن جابر قال: كنا عند النبى ﷺ فهبت ريح منتنة فقال الرسول ﷺ: «**أتدرون ماهذه الريح المنتنة؟ هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين**» أحمد.

وعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مررت ليلة أسرى بى على أقوام**

يخمشون وجوههم بأظافرهم فقلت: ياجبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يغتابون الناس، ويقعون فى أعراضهم».

وقال عمر بن الخطاب: عليكم بذكر الله فإنه شفاء، وإياكم وذكر الناس فإنه داء.

وذكر ابن سيرين رجلا فقال: ذلك الرجل الأسود ثم قال: استغفر الله إنى أرانى قد اغتبته.

وعن مالك بن دينار: قال مر عيسى عليه السلام ومعه الحواريون بجيفة كلب، فقال الحواريون: ما أنتن ريح هذا الكلب، فقال عيسى عليه السلام: ما أشد بياض أسنانه. إشارة منه عليه السلام إلى عدم اغتياب شىء حتى ولوكان كلبا ميتا.

وفى قصة ماعز الذى رجم فى الزنا عظة وعبرة، حيث قال بعض الصحابة ذاكرا إياه بشىء يكرهه لو كان بلغه، فقال أحدهم: أرأيت إلى هذا الذى لم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب، فسمعها النبى ﷺ فسكت حتى مر بأصحابه على جيفة نتنة فقال: أين فلان وفلان، قالوا: نعم يا رسول الله، فقال ﷺ: تعالا كلا من جيفة هذا الحمار، قالوا: غفر الله لك يا رسول الله وهل هذا يؤكل منه؟ فقال ﷺ: ما نلتما من أخيكما آنفا أشد أكلا من ذلك، ووالله لأراه ينغمس فى أنهار الجنة.

وورد أن عيسى عليه السلام قال للحوارين: كيف تصنعون إذا رأيتم أخاكم نائما وقد كشفت الريح ثوبه عنه؟ قالوا: نستره ونغطيه.

قال: بل تكشفون عورته، قالوا: سبحان الله من يفعل هذا؟ قال: أحدكم، يسمع بالكلمة عن أخيه، فيزيد عليها وينشرها بأعظم منها.

وروى عن سفيان بن الحصين قال: كنت جالسا عند إياس بن معاوية فمر رجل، فنلت منه، فقال: اسكت، ثم قال لى: يا سفيان هل غزوت الروم؟ قلت: لا، قال: هل غزوت الفرس؟ قلت: لا، قال: سلم منك الروم، وسلم منك الفرس ولم يسلم منك أخوك المسلم! فما عدت إلى ذلك بعد.

كل هذه النصوص تدلنا على قداسة الحرمة الشخصية للفرد فى الإسلام، والغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه، ذكرت نقصانا فى بدنه، أو لبسه، أو خلقه، أو فعله، أو قوله،أو دينه،أو دنياه،أو ولده، أو ثوبه، أو داره، أو دابته.

ولا تقتصر الغيبة كما يظن البعض على القول بل تجرى أيضا على الفعل كالحركة والإشارة والإيماء والغمز واللمز والكتابة، فإن القلم أحد اللسانين وكل ما يفهم منه الإساءة إلى المسلم فى غيبته فهو غيبة وهو حرام.

فقد ذكر أن ابن سرين ذكر إبراهيم النخعى ذات يوم فوضع يده على عينه يقصد أنه أعمى فاستغفر ربه لأنه اعتبرها غيبة.

ومن الغيبة المحاكاة، كأن يمشى متعرجا أو كما يمشى الآخر، ولقد رأى رسول الله عائشة حاكت امرأة فقال ﷺ: «**ما يسرني أنى حاكيت إنسانا ولى كذا وكذا**» [أبو داود].

وقد ذكر الإمام ابن تيميه بواعث الغيبة فقال:

- فمن الناس من يغتاب موافقة لجلسائه وأصحابه مع علمه أن المغتاب برىء مما يقولون، أو فيه بعض ما يقولون لكن يرى أنه لو أنكر عليهم قطع المجلس واستثقله أهل المجلس ونفروا عنه، فيرى موافقتهم من المعاشرة وطيب المصاحبة وقد يغضبون فيغضب لغضبهم فيخوض معهم.
- ومنهم من يخرج الغيبة فى قوالب شتى، تارة فى قالب تقوى وصلاح، فيقول:ليس لى عادة أن أذكر أحدا إلا بخير، ولا أحب الغيبة ولا الكذب، وأنا أخبركم بأحواله ويقول: والله إنه مسكين، أو رجل جيد، ولكن فيه كيت وكيت، وربما يقول دعونا منه، الله يغفر لنا وله، وإنما قصده استنقاصه وهضما لجنابه، فيخرجون الغيبة فى قوالب صلاح وتقوى يخادعون الله بذلك كما يخادعون مخلوقا، وقد رأينا منهم ألوانا كثيرة من هذا وأشباهه.
- ومنهم من يحمله الحسد على الغيبة فيجمع بين أمرين قبيحين: الغيبة والحسد، وإذا أثنى على شخص أزال ذلك عنه بما استطاع من تنقصه فى قالب تقوى

وصلاح، أو فى قالب حسد وفجور وقدح ليسقط ذلك عنه.

- ومنهم من يخرج الغيبة فى قالب سخرية ليضحك غيره باستهزائه ومحاكاته واستصغار المستهزىء به.
- ومنهم من يخرج الغيبة فى قالب التعجب، فيقول:تعجبت من فلان كيف يفعل كيت وكيت؟ ومن فلان كيف وقع منه كيت وكيت؟ وكيف فعل كيت وكيت، فيخرج اسمه فى معرض تعجبه.
- ومنهم من يظهر الاغتمام فيقول: مسكين فلان غمنى ما جرى له، وماتم له فيظن من يسمعه أنه يغتم له ويتأسف وقلبه منطو على التشفى به ولو قدر لزاد على ما له، وربما يذكره عند أعدائه ليتشفوا به، وهذا وغيره من أعظم أمراض القلوب والمخالفات لله.
- ومنهم من يظهر الغيبة فى قالب غضب وإنكار منكر فيظهر فى هذا الباب من زخارف القول، وقصده غيرها أظهر، ومن المقرر أن السامع شريك المغتاب وإنما الواجب عليه أن ينصر أخاه فى غيبته ويرد عنه وفى الحديث: «**من ذب عن عرض أخيه الغيبة كان حقا على الله أن يعتقه من النار**» [رواه احمد]، ومن لم يستطع رد هذه الألسنة المفترسة من عرض أخيه فأقل مايجب عليه أن يعتزل هذا المجلس ويعرض عن القوم حتى يخوضوا فى حديث غيره وإلا فما أجدره بقول الله ﴿**إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ**﴾ [النساء ١٤٠].

ويصدق فيه قول القائل:

تحر من الطرق أوساطها ... وعد عن الموضع المشتبه
وسمعك صن عن قبيح الكلام ... كصون اللسان عن النطق به
فإنك عند استماعك القبيح ... شريك لقائله فانتبه

والذين رصدوا أسباب هذا المرض اللعين الخبيث يؤكدون أنه ظاهرة دفاع عن

النفس ليس إلا، فأصحاب هذه العيوب يتوقعون نقدا لهم من ناصح أمين يظنونه مهاجما فيتداعون إلى أخذ زمام المبادرة وتحويل الهجوم بهمز ولمز من وراء ظهور الأخرين.

فأجرأ من رأيت يظهر غيبًا على عيب الرجال ذوو العيوب

حتى باتت هذه الخصلة فاضحة لكل ذى لسان طويل، وقد قال أحد الصالحين لمغتاب: قد استدللت على كثرة عيوبك بما تكثر من عيب الناس، لأن الطالب للعيوب إنما يطلبها بقدر مافيه منها.

وهذا التابعى الربيع بن خيثم يُغتاب فى مجلسه رجل، وكان القوم أرادوا أن يشاركهم فى ذم ذلك الرجل فقال: ما أنا عن نفسي براض، فأتفرغ من ذمها إلى ذم الناس، إن الناس خافوا الله فى ذنوب العباد وآمنوا على ذنوبهم.

فلتحذر أخى الحبيب:

وانتبه واستمع لدقات الأجراس التى تصم الأذن منبهة ومحذرة.. إياك قبل السقوط فى الهاوية أو تدهمك الأخطار وتعصف بك العواصف والأنواء وتطفىء الأنوار وتفسد وتقطع العلاقات وتسد الطرق إلى قلوب الآخرين..

فإن أردت أن تنجو وتفوز وتصل إلى غايتك ومرادك فعليك بحفظ غيبة أخيك ولا تأكل لحمه.

***

جامل الناس تحز رق الجميع
رب قيد من جميل وصنيع
عامل الكل بإحسان تحـــب
فقــد جمل المـــرء الأدب

عن عن جابر ﷺ، أن النبي ﷺ دخل بعض بيوته، فدخل عليه أصحابه حتى غص المجلس وامتلأ ، فجاء جرير بن عبدالله البجلي ﷺ فلم يجد مكاناً، فقعد على الباب: فلف رسول الله ﷺ رداءه فألقاه إليه وقال له: أجلس على هذا، فأخذه جرير ووضعه على وجهه يقبله ويبكي، ثم لفه ورمى به إلى النبي ﷺ وقال:ما كنت لأجلس على ثوبك، أكرمك الله كما أكرمتني، فنظر النبي ﷺ يميناً وشمالاً ثم قال : «**إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه**»

إن الله تعالى خلق الناس درجات، وأنزلهم منازل مختلفة وذلك ليبتليهم ويختبرهم وليخدم بعضهم بعضا، وهذه سنة كونية، لاتستقيم الحياة بغيرها، وقد قال الله تعالى:

﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [الأنعام ١٦٥].

ويقول الإمام ابن كثير رحمه الله مفسرا قوله تعالى: ﴿**وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ**﴾ أي تفاوت فى الأرزاق والمحاسن والمساوىء والمناظر والأشكال والألوان وله الحكمة فى ذلك، وبما أن الله خلق الناس درجات ومنازل فإن من الحكمة أن يكون التعامل مع كل فئة بما يناسبها مع مراعاة أن يتجنب الإنسان الإساءة إلى أحد أو احتقاره، ومن هذا المنطق ينبغى أن يكرم الكريم وأن يوقر العالم وأن يجل الشيخ وأن يحترم ويقدر الحاكم العادل وكذلك كل رئيس أو مسئول.

فقد أمرنا ديننا أن ننزل الناس منازلهم، وأن نعرف لذوى الفضل فضلهم ومن تجاهل ذلك فهو خارج على آداب الإسلام، يقول الرسول ﷺ: «**ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ومن لم يوف لعالمنا حقه**».

وروى عن أنس ﷺ أن قال له: «**يا أنس ارحم الصغير ووقر الكبير تكن من رفقائي**» [البخاري والترمذي].

وعن أبى موسى ﷺ قال رسول الله ﷺ: «**إن من إجلال الله تعالى إكرام ذى الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالى فيه ولا الجافى عنه، وإكرام ذى السلطان المقسط**» [أبو داود].

وذلك لأن الله خلق الناس وجبلهم على حب وتقدير وإكرام الذات ولاسيما إذا توافرت لدى شخص مواصفات ومؤهلات الإكرام والإجلال.

فقد روت كتب السيرة أن العباس رضى الله عنه أتى النبى ﷺ بعد أن أسلم أبو سفيان وقال: يا رسول الله: إن أبو سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا قال ﷺ: **نعم**. وأمر فنادى مناديه: من دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن. لقد أكرمه النبى وخصه بميزة تناسب منزلته بين قومه فهو سيدهم وكبيرهم.

لذا يجب بمن يود بناء علاقات اجتماعية مع كبار القوم وسادتهم وأهل العلم والمروءة والنبل منهم أن يحرص على إكرامهم وتقديرهم وإنزالهم منازلهم، لأن إنزالهم منازلهم أمر مطلوب شرعا والالتزام به من أفضل الطرق للوصول إلى الكرام من الناس وتوطيد العلاقة معهم، إذ لايمكن أن يتساوى الناس فى الدنيا ولا فى الآخرة.

وقد امتثل الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، بهذا الأدب الربانى فضربوا أعظم النماذج فى كيفية التعامل مع النبي ﷺ فهذا عمه العباس ﷺ يسئل: أنت أكبر أم رسول الله؟ فقال: هو أكبر منى وأنا أسن منه! فقد تأدب أن يقول: أنا أكبر منه.

ويعود مصعب بن عمير رضى الله عنه من المدينة بعد عام من الدعوة فيذهب لرسول الله أولا، وكان من أبر الناس بأمه فترسل إليه تعاتبه وتقول له: ياعاق أتقدم بلد أنا فيه ولا تبدأ بى؟ فقال: ماكنت لأبدأ بأحد قبل رسول الله ﷺ.

وفى خبر أبى أيوب الأنصاري ﷺ شواهد عظيمة من حسن التعامل مع رسول الله ﷺ حيث روى وهو يحدث عن أيام رسول الله ﷺ عنده فقال: لما نزل فى أسفل البيت وأنا وأم أيوب فى العلو فقلت: يانبى الله بأبى أنت وأمى إنى لأكره وأعظم أن أكون فوقك

وتكون تحتى فاظهر (أى اصعد) أنت فكن فى الأعلى وننزل نحن نكون فى السفل، قال: يا **أبا أيوب إنه لأرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون فى أسفل البيت**، قال: فكان رسول الله ﷺ فى سفله وكنا فوقه فى المسكن، ولقد انكسرت جرة لنا فيها ماء يوما فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا مالنا لحاف غيرها ننشف بها الماء تخوفا أن يقطر على رسول الله ﷺ شيء يؤذيه، فنزلت إليه وأنا مشفق فلم أزل أستعطفه حتى انتقل إلى العلو.

وفى رواية أخرى: فجعل أبو أيوب لا ينام يحاذر أن يتناثر عليه الغبار ويتحرك فيؤذيه، فلما أصبح عدا إلى رسول الله ﷺ قائلا: يا رسول الله ما جعلت الليلة فيها غمضا أنا ولا أم أيوب؟ فقال: **مم ذلك يا أبا أيوب**، فقال: ذكرت أنى على ظهر بيت وأنت أسفل منى فأتحرك فيتناثر عليك الغبار ويؤذيك تحركى، وأنا بينك وبين الوحى!

وكان أبو موسى الأشعرى ﷺ خطيبا بالبصرة يبدأ بذكر عمر فى الخطبة قبل أبو بكر أيام خلافته -خلافه عمر- فقال له رجل فى ذلك، فشكاه أبو موسى إلى عمر رضى الله عنه وقال: ما أغضب أميرك عليك؟ فأخبره الرجل بتأخر ذكر أبى بكر عن عمر رضى الله عنهما فى الخطبة فبكى عمر وقال: والله أنت أوفق منه وأصوب، والله ليوم وليلة من أبى بكر خير من عمر وآل عمر.

لقد كان هو الخليفة وهو يعلم أن القرآن قد وافقه فى كثير من المواضع ويتذكر ما قاله الرسول ﷺ فيه، كما أن عهده تمت فيه الكثير من الفتوحات وكل ذلك لم ينسه الفضل ولا أهله السابقين.

نعم إنها الأصالة والوفاء والأدب ووضع كل فرد فى موضعه اللائق به، واقتدى التابعون بصحابة رسول الله ﷺ فى توقير بعضهم البعض وإنزال الناس منازلهم، فكان الإمام الشافعى رحمه الله يزور تلميذه أحمد بن حنبل رحمه الله كثيرا ويزوره الآخر كثيرا فقيل للشافعى فى ذلك فأنشد:

قالوا يزورك أحمد وتزوره ... قلت الفضائل لا تغادر منزله
إن زارنى فبفضله أو زرته ... فلفضله والفضل فى الحالين له

فأجابه الإمام أحمد:

إن زرتنا فبفضل فيك تمنحنا ... أو نحن زرنا فللفضل الذى فيك
فلا عدمنا كلا الحالين منك ولا ... نال الذى يتمنى فيك شانيك

وعن الشعبى قال: صلى زيد بن ثابت على جنازة ثم قربت له بغلة ليركبها فجاء ا بن عباس فأخذ بركابه توقيرا وتعظيما لعلمه وفضله، فقال له زيد: خل عنك يا ابن عم رسول الله، فقال ابن عباس: هكذا نفعل بالعلماء والكبراء.

- ومن الأمور التي يجب أن ينتبه إليها الفرد، العلاقات فى محيط العمل، فأشد ما يغيظ الرئيس ويتعبه أن يقوم المرؤوس بسحب البساط من تحت قدميه، ويكون ذلك بسحب بعض صلاحياته أو تجاهله، أو إخفاء بعض المعلومات عنه، أو عدم الاكتراث به وبقراراته، أو عدم احترامه وتقديره أمام الآخرين وخاصة أمام الضيوف والرؤساء والقيادات، أو محاولة إثارة المرؤوسين عليه.

فإن هذه الممارسات تتسبب فى زرع بذور الفتنة والشقاق بين الرئيس والمرؤوس، بل ربما تؤدى إلى تربص كل طرف بالآخر والإيقاع به.

ويحكى أن مديرًا وسكرتيرته ورئيس مجلس إدارة شركة كبيرة كانوا يمشون في حديقة الشركة في طريقهم للغداء فوجدوا مصباحًا سحريًا قديمًا فعبثوا به فخرج عليهم مارد عملاق قال لهم: سأنفذ لكم ثلاثة طلبات لكل واحد طلب فاطلبوا.

قال المدير: أنا الأول أريد رحلة حالمة إلى جزر سيشل أستمتع بهواية قيادة القوارب السريعة فلم تمضِ لحظات إلا وقد اختفى منفذًا طلبه.

هبت السكرتيرة وقالت :أنا الثانية.

قال لها المارد: اطلبي.

قالت السكرتيرة أريد الذهاب إلى جزر الهاواي أسترخي هناك وأعيش باقي حياتي

فلم تمضِ لحظات إلا وقد اختفت منفذًا طلبها

قال المارد لرئيس مجلس الإدارة: لم يبق إلا أنت فاطلب.

قال رئيس مجلس الإدارة كل ما أريده هو إعادة هذين المجنونين لمكتبيهما في الشركة قبل انتهاء وقت الغداء.

فلا تكن مندفعًا وتسبق رئيسك فليكن الأول دائمًا.

- وكذلك من الأمورالتى يجب أن ينتبه إليها الفرد، إكرام أهل بيته وعشيرته، وإنزالهم منازلهم التى يستحقونها، فقد يغفل بعض الناس عن هذا الأدب بزعم صلة القرابة والتبسط فى العلاقات وإزالة الحواجز وهذا خطأ شائع يقع فيه الكثير.

فهذا رسول الله ﷺ يضرب لنا مثلا فى كيفية التعامل مع الأهل والأقارب، عندما جاءت إليه مرضعته فبسط لها رداءه ثم قال لها: مرحبا بأمى، ثم أجلسها على الرداء، ثم قال لها: **اشفعى تشفعى وسلى تعطى**، فقالت: قومى، فقال: **أما حقى وحق بنى هاشم فهو لك**، فقام الناس من كل ناحية وقالوا: وحقنا يارسول الله، ثم وصلها بعد وأخذها ووهب له سهمانة بحنين.

فما أحوجنا اليوم إلى أخلاق الأوائل فى معرفة الفضل وأهله وإكرامهم وإنزالهم منازلهم واحترامهم وتوقيرهم.

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح

فلتحذر أخى الحبيب:

وانتبه واستمع لدقات الأجراس التى تصم الأذن منبهة ومحذرة.. إياك قبل السقوط فى الهاوية أو تدهمك الأخطار وتعصف بك العواصف والأنواء وتطفيء الأنوار وتفسد وتقطع العلاقات وتسد الطرق إلى قلوب الآخرين..

فإن أردت أن تنجو وتفوز وتصل إلى غايتك ومرادك فعليك بمعرفة فضل أخيك، وإكرامه وتوقيره، وإنزاله منزلته.

لا يكتم السر إلا من له شرف

والسر عند كرام الناس مكتوم

السر عندى فى بيت له غلق

ضلت مفاتيحه والباب مختوم

يروي أنس ﷺ فيقول: أتانا رسول الله ﷺ ونحن صبيان فسلم علينا، وأرسلني فى حاجة، وجلس فى الطريق ينتظرنى حتى رجعت إليه، قال: فأبطات على أم سليم، قالت: ما حبسك؟ فقلت بعثنى النبى فى حاجة، قالت: ما هى؟ قلت: إنها سر، قالت: فاحفظ سر رسول الله.

فلابد أن يعتاد الفرد على أنه مؤتمن على الأسرار مفرقا بين ما يجوز وما لا يجوز، يتحفظ حيث ينبغي التحفظ، ويسكت حيث ينبغي السكوت، ويسهب حيث ينبغي الإسهاب، ويجب على كل مسلم أن يحفظ لسانه ولا يغفل عنه وليذكر قوله ﷺ لمعاذ وهل يكب الناس على مناخيرهم فى جهنم إلا حصائد ألسنتهم الترمذي.

وعن أبى هريرة ﷺ أن رجلا سأل النبي ﷺ: ما النجاة؟ قال: «**أمسك عليك لسانك؟ وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك**» الشيخان.

وقال رسول الله ﷺ: «**إذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فهو أمانة**» أبو داود.

وقيل: إنما يتجالس المتجالسون بالأمانة فلا يحل لأحد أن يفش على صاحبه ما يكره.

وأمرنا النبى بالتخلق بهذا الخلق العظيم والصفة النبيلة فقال: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان».

والسر ضربان، أحدهما: ما يلقى الإنسان من حديث يستكتم، وذلك إما لفظا، كقولك لغيرك: اكتم ما أقول لك، وإما حالا وهو أن يتحرى القائل حال انفراده، فيخفض صوته، أو يخفيه عن مجالسه.

يقول عمر بن عبد العزيز: القلوب أوعية الأسرار والشفاة أقفالها، والألسن مفاتيحها، فليحفظ كل امرىء مفتاح سره.

ويقول حكيم: من أفش سره أفسد أمره ومن كتم سره ملك أمره.

ولإفشاء الأسرار مفاسد كثيرة:

أخطرها أنها خيانة للأمانة، وقد نزلت الآية الكريمة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا**

اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧] فى أبى لبابة حين أفشى سر رسول الله ﷺ إلى بنى قريظة.

وقال الحسن: وإن من الخيانة أن تحدث بسر أخيك.

كما قال معاوية: إفشاء السر خيانة وهو حرام إذا كان فيه إضرار، ولؤم إن لم يكن فيه إضرار.

إفشاء السر يعود بالضرر على من ذل به لسانه ولما أفشى يوسف عليه السلام سره فى رؤياه وعلم أخوته به حل به ما حل.

وقيل: كم من ظهار سر أراق دم صاحبه، وصرفه عن بلوغه أمله ولو كتمه أمن سطوته.

إفشاء السر يؤدى إلى ضياع الثقة بين الناس، وقد أباح الغزالى رحمه الله لمستودع السر الكذب حفاظا على سر أخيه فقال: ولمستودع السر أن ينكره وإن كان كاذبا، ليس الصدق واجب فى كل مقام، وكما يجب للرجل أن يخفي عيوب نفسه وأسراره، فكذلك يجب أن يخفي عيوب الآخرين وأسرارهم.

وبعض الناس تراهم يتحدثون دائما عن غيرهم، ويروون الأحاديث، وينسبونها إلى الآخرين، ويرون من باب التفاخر وإحاطتهم بالأمور أن يفشوا أسرار الآخرين، وهؤلاء وأشباههم تعودوا ذلك لأنهم شبوا عليه، فتراهم لا يتحرجون عن ذكر أحاديث خاصة بهم وبأسرهم فهم لم يتعودوا على مسك لسان أو كتمان سر.

ومن أجل ذلك قيل: كتمان الأسرار من شيم الأحرار، وشمائل الأبرار، وهو أبعد الفعال من الضرر، وأحق الخصال بالظفر، ويدل على وفور العقل وكثرة الصبر وكمال المروءة.

وأحيانا قد تعدو الضرورة إلى الإفضاء بالسر إلى بعض الخاصة وأهل الثقة للاستعانة برأيهم، فعلى هؤلاء أن يتحفظوا بما اؤتمنوا عليه من السر وإلا كانوا خائنين وعلى صاحب

السر أن يختار الصادق الأمين الذى يستشيره وليحذر أن يودع سره من يتطلع عليه، ويؤثر الوقوف عليه، فإن طلب الوديعة خائن، وقد قيل: لا تنكح خاطب سرك.

وقيل: لا تذع سرا إلى طالبه منك فالطالب للسر مذيع.

ويقول الإمام الماوردى فى كيفية التعامل مع الأسرار: واعلم أن من الأسرار مالا يستغنى فيه عن مطالعة صديق مساهم، واستشارة ناصح مسلم، وليتحر فى اختيار من يأتمنه عليه ويستودعه إياه، فليس كل من كان على الأموال أمينا كان على الأسرار مؤتمنا.

لاتفش سرا ماستطعت إلى أمرىء ... يفشى إليك سرائرا يُستودع
فكما تراه بسر غيرك صانعا ... فكذا بسرك لا محالة يصنع

ويقول أنوشران: من حصن سره فله بتحصينه خصلتنان: الظفر بحاجته والسلامة من السطوات.

ويقول آخر: انفرد بسرك ولا تودعه حازما فيزل، ولا جاهلا فيخون.

وقال الماوردى: إظهار الرجل سر غيره أقبح من إظهار سر نفسه، لأنه يبوء بإحدى وصمتين: الخيانة إن كان مؤتمنا، والنميمة إن كان مستخبرا، فأما الضرر فيما استويا فيه، أو تفاضلا فكلاهما مذموم وهو فيها معلوم.

ويقول على بن أبى طالب ﷺ: سرك أسيرك فإذا فضحته صرت أسيره.

وقالوا: لا تودع سرك إلا حافظا فإن قلوب الأحرار حصون الأسرار، ومن كلام الحكماء: كتمان السر موجب السلامة وإفشاؤه يعقب الندامة.

وقال المهلب بن أبى صفرة:

أدنى أخلاق الشريف كتمان السر وأعلاها نسيان ما أسر إليه. وقيل: سرك من دمك، إذا تكلمت به فقد أرقته.

ومما يروى أن معاوية ﷺ أسر إلى الوليد بن عتيبة حديثا فقال لأبيه: يا أبت إن أمير المؤمنين أسر إلى حديثا، وما أراه يطوى عنك ما بسطه إلى غيرك.

قال: فلا تحدثني به، فإنه من كتم سره كان الخيار إليه، ومن أفشاه كان الخيار عليه، قال: فقلت: يا أبت وإن هذا ليدخل بين الرجل وبين ابنه؟ فقال:

لا والله يا بنى، ولكن أحب أن تذلل لسانك بأحاديث السر، قال: فأتيت معاوية فأخبرته فقال: يا وليد أعتقك أبوك من رق الخطأ.

وقال الشاعر:

وزن الكلام إذا نطقت ولاتكن ... ثرثارة فى كل ناد تخطب
واحفظ لسانك واحترز من لفظه ... فالمرء سليم باللسان ويعطب
والسر فاكتمه ولا تنطق به ... إن الزجاجة كسرها لا يشعب
وكذلك سر المرء إن لم يطوه ... نشرته ألسنة تزيد وتكذب

وقال معاوية بن أبى سفيان: لما استعملنى عمر ابن الخطاب ﷺ دخلت على أبى سفيان فقال لى: إن هذا الرهط من قريش سبقونا وتأخرنا فرفعهم سبقهم ن وقصرنا بنا تأخرنا، فصاروا قادة وصرنا أتباعا وأرى هذا الرجل قد استعملك فاحفظ منى ثلاثا: لا يجرب عليك كذبا ولا تفشين له سرا، ولا تطو عنه نصيحة وإن استثقلتها.

وصدق الشاعر:

لا يحفظ السر إلا كل ذى كرم ... والسر عند لئام الناس مبذول

فإفشاء السر منهي عنه لما فيه من الإيذاء والتهاون بحق المعارف والأصدقاء.

فهذه فاطمة ﷺ تدخل على أبيها ﷺ وعنده زوجاته فيستقبلها مرحبا ويجلسها على يمينه ثم يسر إليها بكلمات فإذا بها تبكى في الأولى، وتضحك فى الثانية، فتطلب منها السيدة عائشة أن تخبرها بما قاله أبوها لها فتقول: ما كنت لأفشى عن رسول الله ﷺ سرا، فلما مات ﷺ ألحت عليها عائشة أن تخبرها فقالت: أما الآن فنعم، أما حين سارنى فى المرة

الأولى فأخبرني أن جبريل كان يعارضنى القرآن فى كل سنة مرة أو مرتين وأنه عارضه الآن مرتين، وإني لأرى الأجل قد اقترب، فاتقى الله وأصبري فإنه نعم السلف أنا لك، فبكيت بكائى الذى رأيت فلما رأى جزعى سارنى فى الثانية، فقال: «**يا فاطمة أما ترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة**» فضكت ضحكي الذى رأيت.

وأما عبد الله بن عمر ﷺ فيحكى لنا أن عمر ﷺ حين تأيمت حفصة قال: لقيت عثمان بن عفان ﷺ فعرضت عليه حفصة، فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر قال: سأنظر فى أمري، فلبثت ليالى ثم لقينى فقال: قد بدا لى أن لا أتزوج من يومي هذا، فلقيت أبا بكر الصديق ﷺ، فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة بن عمر، فصمت أبو بكر فلم يرجع إلى شيئا، فكنت أوجد منى على عثمان، فلبثت ليالى حتى خطبها النبى ﷺ فأنكحتها إياه، فلقينى أبو بكر فقال: لعلك وجدت على حين عرضت على حفصة فلم أرجع إليك فيما عرضت على إلا أنى كنت علمت أن النبى ﷺ ذكرها فلم أكن لأفشى سر رسول الله ﷺ، ولو تركها النبى لقبلتها.

فإن الذى يعرف بكتمان السر يثق به الجميع ويأتمنونه ويلتفون حوله، ومن كان بموضع ثقة ومحبة كان أقدر على تحصيل الخير لنفسه ولغيره ودفع الضرر عن الجميع، فإذا أردت أن تكون مرجعًا للآخرين ومكمن سرهم وموطن ثقتهم، فكن بئرًا عميقا، تحفظ أسرارهم، وتخفى ما يودعون عندك من خصوصيات حياتهم، فإن إفشاء السر خلق ردىء ينفر الناس عن صاحبه، كما أنه سبب لجلب العداوات وهدم العلاقات.

وروى أن رجلا أسر إلى صديق له حديثا، ثم قال: أفهمت؟ قال: بل جهلت، قال: أحفظت؟ قال: بل نسيت. وكن كالقائل:

ومستودع سرا تضمنت سره ... فأودعته من مستقر الحشا قبرا
ولكني أخفيه عنى كأني ... من الدهر يوما ما أحطت به خبرا
وما السر فى قلبي كميت بحفرة ... لأنى أرى المدفون ينتظر النشرا

فلتحذر أخى الحبيب:

وانتبه واستمع لدقات الأجراس التى تصم الأذن منبهة ومحذرة؛ إياك قبل السقوط فى الهاوية أو تدهمك الأخطار وتعصف بك العواصف والأنواء وتطفيء الأنوار وتفسد وتقطع العلاقات وتسد الطرق إلى قلوب الآخرين..

فإن أردت أن تنجو وتفوز وتصل إلى غايتك ومرادك فعليك بكتمان الأسرار ولا تفش سرا لأحد.

***

والنفس إن صلحت زكت، وإذا خلت
من فطنة لعبت بها الأهواء
لولا النميمة لم يقع بين امـــرىء
وأخيه من بعد الوداد عداء

يروى أن رجلا رأى غلاما يباع وليس به عيب إلا أنه نمام فقط، فاستخف بالعيب واشتراه، فمكث العبد عنده أياما ثم قال لزوجة سيده: إن سيدى يريد أن يتزوج عليك وإنه لا يحبك فإن أردت أن يعطف عليك ويترك ماعزم عليه، فإذا نام خذى الموسى واحلقى شعيرات من تحت لحيته واتركى الشعيرات معك، فقالت فى نفسها: نعم.

وعزمت على ذلك إذا نام زوجها، ثم جاء زوجها فقال له العبد: إن سيدتى زوجتك قد اتخذت لها صديقا ومحبا غيرك وتريد أن تتخلص منك وقد عزمت على ذبحك الليلة وإن لم تصدقنى فتظاهر بالنوم الليلة وانظر كيف تجىء إليك وفى يدها شىء تريد أن تذبحك به فصدقه سيده.

فلما جاء الليل جاءت المرأة بالموسى لتحلق الشعيرات من تحت لحيته والرجل يتظاهر بالنوم فقال فى نفسه: والله لقد صدق الغلام، فلما وضعت الموسى وأهوت إلى حلقه، قام وأخذ الموسى منها وذبحها به، فجاء أهلها فوجدوها مقتولة فقتلوه فوقع القتال بين الفريقين بشؤم ذلك العبد النمام.

فالنميمة فعل ذميم، وهى نقل مايسمعه الإنسان عن شخص إلى ذلك الشخص على وجه يوقع بين الناس، ويكدر صفو العلائق بينهم أو يزيدها كدرا، وهى شؤم على صاحبها وعلى الآخرين.

وقد نزل القرآن بذم هذه الرذيلة منذ أوائل العهد المكى إذ قال تعالى: ﴿**وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ**﴾ [القلم ١٠، ١١].

وقال عليه الصلاة والسلام: **لا يدخل الجنة قتات**. والقتات هو النمام وقيل: النمام هو الذى يكون مع جماعة يتحدثون حديثا فينم عليهم، والقتات: هو الذى يتسمع عليهم وهم لا يعلمون ثم ينم، وقيل: شرار الله المشاءون بالنميمة المفرقون بين الأحبة الباغون للبرآء العيب.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما: أن رسول الله ﷺ مر بقبرين فقال: «**إنهما يعذبان**

ومايعذبان فى كبير! أما أحدهما فكان يمشى بالنميمة وأما الآخر فكان لايستتر من بوله».

إن صنفا ممن نتعامل معهم من الناس من يلبس لباس الزاهد العابد، ويتكلم بفصاحة الناصح الأمين، حتى إذا خدع وأوهم، وفرق وأبهم، ولى مقهقها ونحن نبكى، وهو فى ذلك يتبع أسلوب شيطانى، فيعرض الشر معرض الخير، ويوقع بين الناس، فيفسد بين الصديق والصديق، والجار وجاره، والزوج وزوجه، فكم من حبال المودة قطعت، وأرحام مزقت، وأواصر وروابط فصمت عراها وماذلك إلا بنميمة نمام.

ألـيس مـن العـدل أن تسـمعا ... فأشـكو إليـك نمومـا سـعى؟
فأبـدع مـا شـاء فى فريـة ... تـأنق فى صـنعها وادعـى
ومـا كـان لـولا خـلاج الظنـون ... ليرغـب فى القـول أو يطمعـا
ولـيس ملامـى عـلى مـن وشـى ... ولكـن ملامـى عـلى مـن وعـى
أيجمـل بالعهـد أن يسـتباح ... لـواش وللـود أن يقطعـا؟
ومـن أشرك النـاس فى أمـره ... دعتـه الضرورة أن يخـدعا

لأن النميمة تجعل صاحبها لا هم له إلا الإفساد بين الناس وتقطيع عرى المحبة بين الإخلاء، فعن أسماء بنت يزيد أن الرسول ﷺ قال: ألا أخبركم بخياركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: **الذين إذا رؤوا ذكر الله عز وجل، ثم قال: ألا أخبركم بشراركم؟ المشاؤون بالنميمة المفسدون بين الأحبة الباغون للبرآء العيب** [أحمد].

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: إن محمدًا ﷺ قال: **ألا أنبئكم ما العضة؟ هى النميمة القالة بين الناس.**

وقال ابن منظور: النم هو التحريش والإغراء.

يقول المأمون: النميمة لا تقرب مودة إلا أفسدتها، ولا عداوة إلا جددتها، ولا جماعة إلا بددتها، ثم لابد لمن عرف بها أن يطرد، وعن مجالس الأصدقاء يبعد.

وقال بعضهم: لو صح ما نقله النمام إليك لكان هو المجترىء بالشتم عليك، والمنقول عنه أولى بحلمك لأنه يقابلك بشتمك، وفى هذا المعنى يقول الشاعر:

مـــن يخـــبرك بشـــتم أخ فهـــو الشـــاتم لا مـــن شـــتمك
ذاك شـــيء لم يواجهـــك بـــه إنـــما اللـــوم عـــلى مـــن أعلمـــك ؟

وقيل جاء رجل إلى وهب فقال: إن فلانا شتمك فقال له: أما وجد الشيطان غيرك؟

وقيل لرجل: فلان يشتمك فى الغيبة فقال: ولو ضربنى وأنا غائب لم أبال به.

وقال مصعب بن الزبير: نحن نرى أن قبول السعاية شر منها، لأن السعاية دلالة والقبول إجازة وليس من دل على شيء كمن أجازه، فاتقوا الساعى؛ فلو كان صادقا لكان لئيما فى صدقه حيث لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة.

وقيل لبعضهم: إن فلانا قال فيك كذا، فقال: يا هذا والله ما رعيت حق مجالسته حتى نقلت إلى حديثه، ولا رعيت حقى حتى تبلغني عن أخي ما أكره، واعلم أن الموت يعمنا، والبعث يحشرنا والقيامة تجمعنا والله تعالى يحكم بيننا وهو خير الحاكمين.

يريـــك النصـــيحة عنـــد اللقـــا ويبريـــك فى السر بـــرى القلـــم
فبـــت حبالـــك مـــن وصـــله ولا تكثـــرن عليـــه النـــدم

إن الإسلام فى سبيل إنهاء الخصومة وإصلاح ذات البين يبيح للمصلح أن يخفى مايعلم من كلام سيىء قاله أحدهما عن الآخر، ويزيد من عنده كلاما طيبا لم يسمعه من أحدهما فى شأن الآخر وفى الحديث: «**ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو نمى خيرا**» [البخاري].

ويغضب الإسلام أشد الغضب على أولئك الذين يسمعون كلمة السوء فيبادرون بنقلها تزلفا أو كيدا، أو حبا فى الهدم والإفساد وأن مثل هؤلاء لا يقفون عند ما سمعوا.

إن شهوة الهدم عندهم تدفعهم إلى أن يزيدوا على ما سمعوا ويختلقوا إن لم يسمعوا فهم كما وصفهم أحد الشعراء:

إن سمعوا الخير أخفوه وإن سمعوا شرا أذاعوا، وإن لم يسمعوا كذبوا

فمن الناس من يسعى بين الأحبة لتفريق صفهم، وتكدير صفوهم، فكم تخاصمَتْ

بسبب الوشاية من رحم، وكم تقطعت من أواصر، وكم تفرق من شمل.

وأعظم جرمًا من الوشاية: أن يصغي الإنسان إليها، ويصيخ السمع لها. وما أجمل قولَ الأعشى:

ومن يطع الواشين لا يتركوا له صديقًا وإن كان الحبيب المقربا

دخل رجل على عمر بن عبد العزيز فذكر له عن آخر شيئا يكرهه فقال عمر: إن شئت نظرنا فى أمرك، فإن كنت كاذبا فأنت من أهل هذه الآية: ﴿إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ وإن كنت صادقا فأنت من أهل هذه الآية ﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ وإن شئت عفونا عنك قال: العفو ياأمير المؤمنين، لا أعود إليك أبدا.

وقد أظهرت دراسة فنلندية حديثة استغرقت ثلاث سنوات أن انتشار النميمة في بيئة العمل يزيد من مخاطر إصابة العاملين بالاكتئاب بنسبة ٦١٪، فقد جُبِل بعض الناس على الوشاية بين الشخص ومن يعمل معه أو تربطه به صداقة أو علاقة من أي نوع، والبحث عن كل ما يسيء إلى هذه العلاقة بوضع ما يكفي لتوتيرها بالافتئات على الحقائق وممارسة أساليب الدس والخداع.

واعلم أيها الأخ الحبيب:

أن كل من حمل إليك نميمة، وقال لك: قال فيك فلان كذا وكذا فعليك:

- ألا تصدقه، لأنه نمام فاسق وهو مردود الخبر ﴿يا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا إن جَائَكُم فَاسِق بِنَبَأ فَتَبَينُوا أَن تُصِيبُوا قَومَا بِجَهَالَة فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلِتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات:٦].
- أن تنهاه عن ذلك ﴿وَأْمُرْ بِالمَعْرُوفِ وَ انْهَ عَنِ المُنكَرِ﴾ [لقمان:١٧].
- أن تبغضه فى الله عز وجل فإنه بغيض عند الله والبغض فى الله واجب.
- ألا تظن فى المنقول عنه سوءا ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرا مِنَ الظن إنَ بَعْضِ الظنِ إِثْم﴾ [الحجرات:١٢].

- ألا يحملك ماحكى لك على التجسس والبحث للتحقق ﴿لا تَجَسَّسُوا﴾

[الحجرات:١٢].

- الا ترضى لنفسك مانبهت النمام عنه، فلا تحكى نميمته فقد قال الإمام الحسن البصرى: من نم لك نم عليك.

فلتحذر أخى الحبيب:

وانتبه واستمع لدقات الأجراس التى تصم الأذن منبهة ومحذرة.. إياك قبل السقوط فى الهاوية أو تدهمك الأخطار وتعصف بك العواصف والأنواء وتطفيء الأنوار وتفسد وتقطع العلاقات وتسد الطرق إلى قلوب الآخرين..

فإن أردت أن تنجو وتفوز وتصل إلى غايتك ومرادك فعليك أن لا تؤجر أذنيك للآخرين ولا تكن نماما.

* * *

يخاطبني السفيه بكل قبح
آسف أن أكون له مجيبا
يـــزيد سفاهة وأزيد حلما
كعود زاده الإحراق طيبا

يحكى أن رجلا من أهل الشام دخل المدينة المنورة فرأى شابا حسن الهيئة، جميل المنظر، نظيف الملابس، راكبا دابة قوية نشيطة، فسأل فقيل له: هذا الحسن بن على بن أبى طالب، فامتلأ قلبه حسدا له وحقدا عليه، وتقدم إليه وقال له: أأنت ابن أبى طالب؟ فقال الحسن: أنا ابن ابنه، فقال الرجل: لقد قلت فيك وفى أبيك كلاما قبيحا أشتمكما به، وذكر له ذلك الكلام فقال الحسن: أظنك غريبا فقال الرجل: نعم، فقال الحسن: إذا احتجت إلى منزل أسكنتك، أو إلى مال أعطيتك، أو إلى حاجة ساعدتك، فعجب الرجل من حلم الحسن ﷺ وانصرف وهو يقول: ليس على وجه الأرض شيء أحب إلى من هذا الشاب، أسأت إليه فأحسن إلى وصدق القائل:

أحب مكارم الأخلاق جهدى ... وأكره أن أعيب وأن أعابا
وأصفح عن سباب الناس حلما ... وشر الناس من يهوى السبابا
ومن هاب الرجال تهيبوه ... ومن حقد الرجال فلن يهابا

فمن الأخطاء الشائعة بين الناس والتي بسببها تسوء العلاقات بينهم، أنهم يحرصون على تفريخ الشحنات النارية المتجمعة فى صدروهم وإطلاقها على شكل موجات غاضبة تحرق الأخضر واليابس، فهم لا يستطيعون السيطرة على غضبهم، بل يريد أحدهم أن ينفس عن غضبه ليرتاح، وما يدرى المسكين أنه يحرق نفسه قبل أن يحرق الآخرين، وإذا لم يحرق نفسه بغضبه فإنه سيجنى الحسرة والندامة من وراء غضبه، والعاقل لايفرح براحة لحظية مؤقتة يعقبها ندم دائم وضيق مستمر.

فالغضب داء عضال، بل هو مهلكة وسبب كل قطيعة وجفوة، فإذا تملك إنسان أعمى بصره، وغطى عقله بران لا يكاد ينفد منه رأى أو قول سديد، فتكون النتيجة تهور وطيش وصغار وهوان.

وهذا ما صوره الشاعر فى هذه القصة المعبرة عن أب لم يتمالك نفسه عند الغضب

فحدث ما لم يحمد عقباه:

كسر الغلام زجاج نافذة البنا ... من غير قصد شأنه شأن البشر
فأتاه والده وفي يده عصا ... غضبان كالليث الجسور إذا زأر
مسك الغلامَ يدق أعظم كفه ... لم يبق شيئًا في عصاه ولم يذر
والطفل يرقص كالذبيح ودمعه ... يجري كجري السيل أو دفق المطر
نام الغلام وفي الصباح أتت له ... الأم الرؤوم فأيقظته على حذر
وإذا بكفيه كغصن أخضر ... صرخت فجاء الزوج عاين فانبهر
وبلمحة نحو الطبيب سعى به ... والقلب يرجف والفؤاد قد انفطر
قال الطبيب وفي يديه وريقة ... عجّلْ ووقّعْ هاهنا وخذ العبر
كف الغلام تسممت إذ بالعصا ... صدأ قديم في جوانبها انتشر
في الحال تقطع كفه من قبل أن ... تسري السموم به ويزداد الخطر
نادى الأب المسكين وأسفي على ... ولدي ووقّعَ باكيا ثم استتر
قطع الطبيب يديه ثم أتى به ... نحو الأب المنهار في كف القدر
قال الغلام أبي وحق أمي ... لا لن أعود فرُدَّ ما مني انبتر
شُدِهَ الأب الجاني وألقى نفسه ... من سطح مستشفىً رفيعٍ فانتحر

وصدق رسول الله ﷺ بقوله: «**ليس القوي بالصرعة وأنما القوي من يملك نفسه عند الغضب**».

ووصف أبو حامد الغزالى الغضب فقال: إن الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة، وإنها المستكنة فى طى الفؤاد استكنان الجمر تحت الرماد، ويستخرجها الكبر الدفين فى قلب كل جبار عنيد كاستخراج الحجر النار من الحديد، وقد انكشف للناظرين بنور اليقين، أن الإنسان ينزع منه عرق إلى الشيطان اللعين، فمن استفزته نار الغضب فقد قويت فيه قرابة الشيطان حيث قال: ﴿**خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**﴾ [الأعراف: ١٢]،فإن من شان الطين السكوت والوقار وشأن النار التلظى والاستنفار والحركة والاضطراب.

وقال مجاهد: قال إبليس: ما أعجزنى بنو آدم فلن يعجزونى فى ثلاث: إذا سكر أحدهم أخذنا بحزامته فقدناه حيث شئنا وعمل لنا بما أحببنا، وإذا غضب قال بما لا يعلم وعمل بما يندم، ونبخله بما في يديه ونمنيه بما لا يقدر عليه».

وقال بعضهم: إياك والغضب فإنه يصيرك إلى ذلة الاعتذار.

وإذا اعترتك فى الغضب عزة فاذكر تذلل الاعتذار

وقيل: اتقوا الغضب فإنه يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله: أن لا تعاقب عند غضبك على رجل ولكن احبسه، فإذا سكن غضبك فأخرجه فعاقبه على قدر ذنبه، ولا تجاوز خمسة عشر سوطا.

وقال جعفر بن محمد: الغضب مفتاح كل شر.

وقيل: رأس الحمق الحدة، وقائده الغضب ومن رضى بالجهل استغنى عن الحلم، والحلم زين ومنفعه، والجهل شين ومضره والسكوت عن جواب الحمق جوابه.

وقيل لعبد الله بن المبارك: أجمل لنا حسن الخلق فى كلمة: فقال: ترك الغضب.

والظاهر أن المرء مع تفاقم الغضب يغيب عنه وعيه، ويسلم زمامه، وكما تعصف الاضطراب بمشاعره وتطيش لبه فلا يعي ما يوجبه إليه من نصح ولو كان كلام الله وحكمة رسول الله ﷺ فقد جاء فى الصحيح: استب رجلان عند النبى ﷺ فجعل أحدهما يغضب ويحمر وجهه وتنتفخ أوداجه، فنظر إليه النبى ﷺ فقال: «**إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه هذا: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**»، فقام إلى الرجل أحد ممن سمع النبى ﷺ وقال له: إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه هذا: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فقال الرجل: أتجنونا ترانى وهكذا بلغ بغضب الرجل حدا لم يكترث فيه بتوجيه النبوة.

إن الغضب يمهد النفس لقبول شتى الوساوس ويجعلها بحالة تستسهل فيها أشد الجرائم حتى إذا أفاق الغضوب من نزواته راح يندم على ما فرط منه.

فقد قال على رضى الله عنه لولده الحسن رضوان الله عليهم:احذر الغضب، فإنه

يسفه الحليم ويطيش العالم ويفقد معه العقل ويظهر معه الجهل.

إن ضبط النفس عند الغضب مقياس رجولة الرجال، وليس اندفاعهم وراء لوثة الغضب الهوجاء واستسلامهم لنزق الانفعال الطائش. فالشديد فى نظر الإسلام ليس بالرجل ذى العضلات المفتولة القادر على صرع الناس والتغلب عليهم، بل الشديد هو الرجل المتزن الذى يملك نفسه عند الغضب وقرر رسول الله ﷺ: «**ليس الشديد بالصرعة، وإنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب**» [متفق عليه].

فالواجب على الفرد أن يضبط ويتحكم فى أعصابه حين الثورة والانفعال فيسيطر على الموقف فيدرأ الفتنة والخصومات، ويحسن الوصول إلى الهدف، ويحظى برضا الله والناس، ومن هنا كانت توصية الرسول الكريم للرجل الذى يستوصى كلمة واحدة، (**لا تغضب**) وردد الرجل مرارا قوله: أوصنى، وكان جواب الرسول الكريم هذه الكلمة الجامعة لمكارم الأخلاق: «**لا تغضب**».

فالرجل العظيم حقا كلما حلق فى آفاق الكمال اتسع صدره أو امتد حلمه وعذر الناس من أنفسهم، والتمس المبررات لأغلاطهم، فإذا عدا عليه أحد يريد تجريحه أو الإساءة إليه أو الانتقاص من منزلته وقدره لم يستجب لاستفزازه ويسكت عنه مترفعا متمثلا قول القائل:

قالوا سكت وقد خوصمت قلت لهم ... إن الجواب لباب الشر مفتاح
والصمت عن جاهل أو أحمق شرف ... وفيه أيضا لصون العرض إصلاح
أما ترى الأسد تخشى وهى صامتة ... والكلب يخشى لعمرى وهو نباح

وإليك نماذج من الرجولات التى لا تهزها إساءة ولا تستفزها جهالة، لأن جهالة لغو السفهاء تتلاشى فى رحابتها، كما تتلاشى الأحجار فى أغوار المحيط.

ما يضر البحر أمسى زاخرا ... إن رمى فيه غلام بحجر

يروى أن رجلا سب الأحنف بن قيس وهو فى طريقه إلى منزله فلم قرب من المنزل وقف الأحنف وقال: يا هذا، إن كان بقى معك شىء فقله هاهنا فإنى أخاف إن سمعك

فتيان الحى أن يؤذوك.

وقال رجل لأبى ذر: أنت الذى نفاك معاوية من الشام؟ لو كان فيك خير مانفاك؟ فقال: يا ابن أخى، إن ورائى عقبة كئودا إن نجوت منها لم يضرنى ماقلت وإن لم أنج منها فأنا شر مما قلت.

وقال رجل لأبى بكر: والله لأسبنك سبا يدخل القبر معك، قال: معك أنت لا معى.

وقال رجل لعمرو بن العاص: والله لأتفرغن لك، قال: هناك وقعت فى الشغل، قال: كأنك تهددنى؟ والله لئن قلت لى كلمة لأقولن لك عشرا، قال عمرو: وأنت والله لئت قلت لى عشرا لم أقل لك واحدة. وقال يزيد بن حبيب: إنما كان غضبى فى نعلى فإذا سمعت ما أكره أخذتها ومضيت.

وأسمع رجل عمر بن عبد العزيز بعض ما يكره فقال: لا عليك إنما أردت أن يستفزنى الشيطان بعزة السلطان، فأنال منك اليوم ما تناله منى غدا! انصرف إذا شئت.

إن الغضب سم يسرى فى النفس كما تسرى الكهرباء فى البدن وقد تنشىء رعدة شاملة واضطرابًا مذهلا، وقد يشتد التيار فيصعق صاحبه ويقضى عليه.

إذا دفع الشر القبيح بمثله ... تحصل شر ثالث وتولدا
وأمست دواعى الشر ذات تسلسل ... مديد وصار الشر فى الناس سرمدا
إذا ايقظتنى للعدا اعتداءة ... شربت لها من خالص العفو مرقدا
وأضرب عن جهل الجهول ولن أكن ... لأضرب فى الأيام للغدر موعدا

ومن المواقف العملية التى نقابلها فى حياتنا اليومية شكوى كثير من السيدات من أن زوجها يغضب كثيرا فماذا تفعل؟

فاعلمى إذا كان زوجك ثائر الأعصاب حاد الطباع فأنت فى حاجة إلى الصبر وعليك بالأمور الآتية:

- ابحثى عن أسباب طباعه الحادة، ومنشأ انفعاله المتوتر، والغالب أن هذه الطباع تنشأ عن ظروف خاصة قاسية فأظهري عطفك وحنانك لزوجك.

- لا تتأثرى بسلوك زوجك العصبى فلا تصرخى إذا صرخ، وتذكرى أن العلاقة بين الزوجين علاقة احترام متبادل.
- لا تخطئيه إذا أخطأ أمام الناس، ولا تشجعيه أيضا على التمادى فى ذلك والزمى الصمت.
- لاتشوهى صورة زوجك فى أعماق عقلك نتيجة أخطائه الصغيرة.
- ناقشى زوجك فى عيوبه فى الوقت المناسب، دون أن تجرحى أحاسيسه، وحين تنتقدين عيبا ابدئى بالجملة: أنت على صواب فى هذا، ولكن.....
- استعملى ذكاءك وإخلاصك وحبك فى كشف نقائص زوجك وحثه على التخلص منها واحدة بعد أخرى، وإكسابه عادات سامية بدلا من العادات السيئة.
- لا تظهري التذمر والتأفف من سلوك زوجك وخلقه وعدم استقراره، ولن ينفعك تأنيبك بل قد يزيده عنادا وإصرارا على السلوك العصبى.
- ارفعى معنوياته وزيدى ثقته بنفسه، وتحدثى عن فضائله وتضحياته ومساعدته للآخرين، فيقل بذلك تشاؤمه ويزيد تفاؤله.
- إذا تخاصمت مع زوجك، أو غضب عليك، بادرى لترضيه ولا تنتظرى فتقولى: إنه هو المخطىء وعليه أن يجيء فيرضينى.

فعن أنس بن مالك ﷺ أن النبى ﷺ قال: «**ألا أخبركم بنسائكم فى الجنة؟ قلنا بلى يا رسول الله: قال: «ودود ولود إذا غضبت أو أسيء إليها أو غضب زوجها قالت: هذه يدي في يدك، لا أكتحل بغمض حتى ترضى**» (أى لا أنام) الطبرانى.

- وإذا كان لابد من عتاب، فيمكنكما العتاب بعد أن تهدأ العاصفة بشرط أن يتم فى هدوء وفى الوقت المناسب ودون ضيق أو حقد أو مرارة.

وقد يقول قائل: أنا سريع الغضب، دائم الثورة لأتفه الأسباب ماذا أفعل؟ أوصيك بالآتى:

- لا تندفع فى غضبك أو أنفاعلك الشديد لأتفه الأسباب وتعلم التحكم فى أفعالك، ودرب نفسك على السيطرة على غضبك.
- حول انتباهك إلى أمور أخرى، حتى يتشتت انفعالك ويتبدد تماما.
- اصرف طاقاتك الانفعالية فى أعمال مفيدة كالقيام بنشاط بدنى.
- غير نظرتك إلى غيرك، فإذا كرهت أحدا أو غضبت منه، فابحث فيه عن سبب يرضيك وينال إعجابك، وبذلك تتخلص من غضبك عليه.
- إذا كنت غاضبا من نفسك لشعورك بالنقص فى جزئية ما فابحث عن المزايا والمواهب والمحاسن التى وهبها الله لك، والتى ترفع من قيمتك أمام عينك وأمام الآخرين.
- لا تتخذ قرارا مهما وحاسما أثناء انفعالك، انتظر حتى تهدأ سورة الغضب، ثم عاود التفكير فى الأمور فى هدوء وروية.
- تجنب المواقف التى تثير انفعالك.
- لا تحبس دموع الغضب، ولا تمنع نفسك من البكاء (ولكن لاتبالغ فيه) فهو يعيد لك الهدوء والسكينة وراحة الأعصاب.

ومن الأمور التى علمنا إياها رسول الله ﷺ مقالبة الغضبان بما يحب ومداعبته، فعن سهل بن سعد قال: جاء رسول الله ﷺ بيت فاطمة فلم يجد عليا فى البيت، فقال: **أين ابن عمك؟** فقالت: كان بينى وبينه شىء، فغاضبنى فخرج، فلم يقل عندى، فقال رسول الله ﷺ لأنس: انظر أين هو؟ فجاء فقال: يارسول الله هو فى المسجد راقد، فجاء رسول الله ﷺ وهو مضطجع قد سقط رداؤه عن شقه فأصابه تراب فجعل رسول الله ﷺ يمسحه عنه ويقول: **قم يا أبا التراب، قم يا أبا التراب** .

فإن المداعبة والملاطفة أسلوب ينم عن شفافية النفس ورقة الطبع ولطافة المعشر، فهذه اللفتة الكريمة من النبى ﷺ لعلى بن أبى طالب الذى يعلم أنه خرج من بيته وقت

الظهر غاضبا من زوجته فاطمة تعلمنا ضرورة التلطف مع الغضبان ومبادرته بما يحب من المودة والمحبة حتى يهدأ غضبه وتسكن نفسه.

ومن جميل ماقيل فى الرد الجميل لامتصاص الهجوم أن زوجا قال لزوجته:

إن النساء شياطين خلقن لنا نعوذ بالله من شر الشياطين

فأجابته الزوجة:

إن النساء رياحين خلقن لكم وكلكم يشتهى شم الرياحين

وقد خطب النبى فى الناس عصر يوم من الأيام فكان مما قاله لهم: «**ألا وإن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه فمن أحس بشىء من ذلك فليلصق بالأرض (أى فليبق فى مكانه)، وليجلس، فإنه إذا استطير وراء لهب الغيظ أفسد الأمور فى غيبة وعيه وغلبة عاطفته فلم يدع لإصلاحها مكانا**».

وصدق القائل:

إذا أنا لم أصبر على الذنب من أخ وكنت أجازيه فأين التفاضل
وإذا ما دهانى مفصل فقطعته بقيت وما لى للنهوض مفاصل
ولكن أدوايه فإن صح سرنى وإن هو أعيا كان فيه تحامل

والنبى ﷺ يوصينا بعدة وصايا لتسكين الغضب منها:

- **تغيير العادة التى يكون عليها الغضبان:**

وذلك لما روى الإمام أحمد وغيره عن رسول الله ﷺ قال: «**إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب، وإلا فليضطجع**».

- **اللجوء إلى الوضوء فى حالة الغضب:**

وذلك لما أخرجه أبو الدرداء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من نار، وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ».

- **اللجوء إلى السكوت فى حالة الغضب:**

وذلك لما روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا غضب أحدكم فليسكت».

- **التعوذ بالله من الشيطان الرجيم**

وذلك لما جاء فى الصحيحين أنه استب رجلان عند النبى ﷺ وأحدهما يسب صاحبه مغضبا قد احمر وجهه فقال: لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لذهب عنه ما يجد.

ومما يروى أن رجلا كان يغضب فيشتد غضبه، فكتب ثلاثة صحائف وأعطى كل صحيفة رجلا، وقال للأول: إذا غضبت فأعطنى هذه، وقال للثانى: إذا سكن بعض غضبى فأعطنى هذه، وقال للثالث: إذا ذهب غضبى فأعطنى هذه، فاشتد غضبه يوما فأعطى الصحيفة الأولى فإذا فيها: ما أنت وهذا الغضب، إنك لست بإله إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضا، فسكن بعض غضبه، فأعطى الثانية، فإذا فيها: ارحم من فى الأرض يرحمك من فى السماء، فأعطى الثالثة، فإذا فيها: خذ الناس بحق الله فإنه لا يصلهم إلا ذلك.

وصدق القائل:

ليست الأحلام فى حال الرضا ... إنما الأحلام فى حال الغضب

وقال آخر

من يدعى الحلم أغضب ... لا يعرف الحلم إلا ساعة الغضب

فلتحذر أخى الحبيب:

وانتبه واستمع لدقات الأجراس التى تصم الأذن منبهة ومحذرة: إياك قبل السقوط فى الهاوية أو تدهمك الأخطار وتعصف بك العواصف والأنواء وتطفىء الأنوار وتفسد وتقطع العلاقات وتسد الطرق إلى قلوب الآخرين.

فإن أردت أن تنجو وتفوز وتصل إلى غايتك ومرادك فعليك أن لاتغضب

أخوك من إن غاب عنك
رعـــى ودادك فى غيابه
وإذا أصابك ما يســـوء
رأى مصابك من مصابه
وتراه يفجع إن شـــكوت
كأن ما بك بعض ما به

يحكى أن رجلا ضاقت به سبل العيش، فسئم الحياة وقرر أن يهيم على وجهه في بلاد الله الواسعة، فترك بيته وأهله وغادر المنطقة متجهًا نحو الشرق، وسار طويلًا حتى وصل بعد جهدٍ كبير ومشقةٍ عظيمة إلى منطقة نائية، وقادته الخطى إلى بيت أحد الأجواد الذي رحّب به وأكرم وفادته، وبعد انقضاء أيام الضيافة سأله عن غايته، فأخبره بها.

فقال له المضيف: ما رأيك أن تعمل عندي على أن أعطيك ما يرضيك، ولما كان الرجل بحاجة إلى مكان يأوي إليه، وإلى عملٍ يعمل به اتفق معه على ذلك.وعمل الرجل عند مضيفه أحيانًا يرعى الإبل وأحيانًا أخرى يعدّ القهوة ويقدمها للضيوف، ودام على ذلك الحال عدة سنوات كان الشيخ يكافئه خلالها ببعض الإبل والماشية. ومضت عدة سنوات اشتاق فيها الرجل لبيته وعائلته وتاقت نفسُه إلى بلاده وإلى رؤية أهله وأبنائه، فأخبر صاحب البيت عن نيته في العودة إلى بلده، فعزّ عليه فراقه لصدقه وأمانته، وأعطاه الكثير من المواشي وبعض الإبل وودّعه وتمنى له أن يصل إلى أهله وهو بخير وسلامة.. وسار الرجل، وبعد أن قطع مسافة طويلة في الصحراء القاحلة رأى شيخًا جالسًا على قارعة الطريق، ليس عنده شيء سوى خيمة منصوبة بجانب الطريق، وعندما وصل إليه حيّاه وسأله ماذا يعمل بمفرده في هذا المكان الخالي وتحت حرّ الشمس وهجر الصحراء، فقال له: أنا أعمل في التجارة. فعجب الرجل وقال له: وما هي تجارتك يا هذا، وأين بضاعتك؟ فقال له الشيخ: أنا أبيع نصائح. فقال الرجل: تبيع نصائح، وبكم النصيحة؟! فقال الشيخ: كلّ نصيحة ببعير.. فأطرق الرجل مفكرًا في النصيحة وفي ثمنها الباهظ الذي عمل طويلًا من أجل الحصول عليه، ولكنه في النهاية قرر أن يشتري نصيحة مهما كلفه الأمر فقال له: هات لي نصيحة، وسأعطيك بعيرًا؟..فقال له الشيخ: «إذا طلع سهيل لا تأمَن للسيل» ففكر الرجل في هذه النصيحة وقال: ما لي ولسهيل في هذه الصحراء الموحشة، وماذا تنفعني هذه النصيحة في هذا الوقت بالذات وعندما وجد أنها لا تنفعه قال للشيخ: هات لي نصيحة أخرى وسأعطيك بعيرًا آخر. فقال له الشيخ: «أبو عيون بُرْق وأسنان فُرْق لا تأمن له» وتأمل صاحبنا هذه النصيحة أيضًا وأدارها في فكره

ولم يجد بها أي فائدة، فقال والله لأغامر حتى النهاية حتى لو ضاع تعبي كلّه في دقائق معدودة، فقال للشيخ هات النصيحة الثالثة وسأعطيك بعيرًا آخر، فقال له: «نم على النَّدَم ولا تنام على الدم».

ولم تكن النصيحة الثالثة بأفضل من سابقتيها، فترك الرجل ذلك الشيخ وساق ما معه من مواشٍ وسار في طريقه وظل يسير لعدة أيام نسي خلالها النصائح من كثرة التعب وشدّة الحر، وفي أحد الأيام أدركه المساء فوصل إلى قوم قد نصبوا خيامهم ومضاربهم في قاع وادٍ كبير، فتعشّى عند أحدهم وباتَ عنده، وفي الليل وبينما كان ساهرًا يتأمل النجوم شاهد نجم سُهيل، وعندما رآه تذكّر النصيحة التي قالها له الشيخ ففرّ مذعورًا، وأيقظَ صاحب البيت وأخبره بقصة النصيحة، وطلب منه أن يخبر قومه حتى يخرجوا من قاع ذلك الوادي، ولكن المضيف سخر منه ومن قلّة عقله ولم يكترث له ولم يأبه لكلامه، فقال والله لقد اشتريت النصيحة ببعير ولن أنام في قاع هذا الوادي، فقرر أن يبيت على مكان مرتفع ونام على مكان مرتفع بجانب الوادي. وفي أواخر الليل جاء السيل يهدر كالرعد فأخذ البيوت والقوم، ولم يُبقِ سوى بعض المواشي. وساق الرجل ما تبقى من المواشي وأضافها إلى مواشيه، وصاح لها مناديا فتبعته وسار في طريقه عدة أيام أخر حتى وصل في أحد الأيام إلى بيت في الصحراء، فرحب به صاحب البيت وكان رجلًا نحيفًا خفيف الحركة، وأخذ يزيد في الترحيب هو والتودد إليه حتى أوجس منه خيفة، فنظر إليه وإذا به ذو عيون بُرْق وأسنان فُرْق فقال: آه هذا الذي أوصاني عنه الشيخ، إن به نفس المواصفات لا ينقص منها شيء.

وفي الليل تظاهر الرجل بأنه يريد أن يبيت خارج البيت قريبًا من مواشيه وأغنامه، وأخذ فراشه وجَرَّه في ناحية، ولكنه وضع حجارة تحت اللحاف، وانتحى مكانًا غير بعيد يراقب منه حركات مضيفه، وبعد أن أيقن المضيف أن ضيفه قد نام، خاصة بعد أن لم يرَ حراكًا له، أخذ يقترب منه على رؤوس أصابعه حتى وصله ولما لم يسمع منه أية حركة تأكد له أنه نائما بالفعل، فعاد وأخذ سيفه وتقدم منه ببطء ثم هوى عليه بسيفه بضربة شديدة، ولكن الضيف كان يقف وراءه فقال له: لقد اشتريت والله النصيحة ببعير ثم

ضربه بسيفه فقتله، وساق ماشيته وغاب في أعماق الصحراء.

وبعد مسيرة عدة أيام وصل في ساعات الليل إلى منطقة أهله، فوجد مضارب قومه على حالها، فترك ماشيته خارج الحيّ، وسار ناحية بيته ورفع الرواق ودخل البيت فوجد زوجته نائمة وبجانبها شاب. طويل الشعر، فاغتاظ لذلك ووضع يده على حسامه وأراد أن يهوى به على رؤوس الاثنين، وفجأة تذكر النصيحة الثالثة التي تقول: نم على الندم ولا تنم على الدم، فبردت أعصابه وهدأ قليلًا فتركهم على حالهم، وخرج من البيت وعاد إلى أغنامه ونام عندها حتى الصباح، وبعد شروق الشمس ساق أغنامه واقترب من البيت فعرفه الناس ورحبوا به، واستقبله أهل بيته وقالوا له: لقد تركتنا منذ فترة طويلة، انظر كيف كبر خلالها ابنك حتى أصبح رجلًا، ونظر الرجل إلى ابنه وإذا به ذلك الشاب الذي كان ينام بالأمس بجانب زوجته فحمد الله على سلامتهم، وشكر ربه أن هداه إلى عدم قتلهم وقال بينه وبين نفسه والله إن كل نصيحة أحسن من بعير.

وهكذا فإن النصيحة لا تقدّر بثمن إذا فهمناها وعملنا بها في الوقت المناسب فهى أثمن من الجواهر والأحجار الكريمة.

إن بشريتنا وطبيعتها المجبولة على النسيان تجعلنا دائما فى حاجة إلى من يذكرنا إذا غفلنا وينبهنا إذا سهونا. لأن تلك هى طبيعة البشر، فنحن بشر، وكلنا فيه نقص وعيوب، وواجب الأخوة أن يبصر بعضهم بعضا بما فيهم من نقص أو عيوب، فالمؤمن مرآة أخيه ومن صفات المؤمنين أنهم يتواصون بالحق ومن الواجب ألا تحول مواقع المسئولية مهما تدرجت دون التمسك بهذا الخلق وفى ذلك يقول الرسول الكريم ﷺ: **«إنما أحدكم مرآة أخيه فإذا رأى عليه أذى فليمطه عنه وإذا أخذ أحدكم شيئا فليقل لابك السوء وصرف الله عنه السوء»** البخاري.

«المؤمن مرأة اخيه، والمؤمن أخو المؤمن، يكف عليه ضيعته، ويحوطه من ورائه»

البخاري.

وقد تمثل بهذا المعنى الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى أول خطبة له

بعد توليه الخلافة بقوله: إنى وليت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتمونى على باطل فسددونى.

وكذلك أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب حيث كان يعلن على المنبر:

رحم الله امرءا أهدى إلى عيوب نفسى! مرحبا بالناصح أبد الدهر، مرحبا بالناصح غدوا وعشيا.

وكان الواحد منهم لايضيق صدره بالنقد، يوجه إليه من الآخرين، بل يرحب به، ويفتح سمعه وقلبه، وإن كان الآخرون قد لايريدون بالنقد وجه الله، بل يريدون التشويش والتشهير به، فهو يستفيد منهم مراجعة نفسه وتقويم عيوبه وأخطائه.

وينسب إلى الإمام الشافعى قوله:

عداتى لهم فضل على ومنة ... فلا باعد الرحمن عنى الأعاديا
فهم بحثوا عن زلتى فاجتنبتها ... وهم ناقشونى فارتكبت المعاليا

وقد قال أحد الرعية لعمر: اتق الله يابن الخطاب! فأغضب هذا بعض من حوله، وحاول أن ينتهر هذا القائل، ولكن عمر قال: دعه، فلا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها، وقد ينتفع الإنسان الكبير بالنصيحة يقدمها إليه من هو أصغر منه سنا أو قدرا، وقديما تعلم ابن آدم الأول من الغراب، وعرف منه كيف يواري سوءة أخيه وقد قال الهدهد لسليمان عليه السلام:

﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢].

والنصيحة ليست كلمة عابرة يلقي بها أحدنا إلى الآخر، ظانا بذلك أنه قد فعل ما يأمره به دينه، وأنه أتم ما عليه الحق نحو أخيه كما أنها ليست كلمات نقولها تفضلا من عند أنفسنا إنما النصيحة أدب إسلامي له أهميته الكبرى على مستوى الأفراد.

ورغم أهمية النصيحة الكبيرة للفرد إلا أن الكثير من الناس فى هذا العصر لا يعرفون آداب هذا الخلق العظيم، فهم لذلك ينظرون إلى ذلك الأدب على أنه نافلة وفضلا من عند

أنفسهم هذا إن قاموا بالنصح بين الناس ناهيك عن ذلك المرض الذى يستشري بين الناس اليوم فى مجتمعنا والذى يدعو إلى السلبية بدعوى ترك الخلق للخالق والعباد لرب العباد.

ولقد بلغ اهتمام الإسلام بالنصيحة أن اعتبرها إحدى دعامات المجتمع الإسلامى الراشد قرينة لأركان الإسلام كما جاء فى الصحيحين عن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال: بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم.

ولهذا لم تكن المناصحة بين المسلمين معروفا يسدى أو إحسانا يرجى، بل كانت حقا من الحقوق للمسلم على أخيه المسلم والحق لايسقط إلا بالأداء، ففى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: «**حق المسلم على المسلم ست.. وذكر منها: إذا استنصحك فانصح له**».

ويقول الحسن البصرى: لم يبق من العيش إلا ثلاث: أخ لك تصيب من عرته خيرا، فإن زغت عن الطريق قومك، وكفاف من عيش ليس لأحد عليك فيه تبعة، وصلاة فى جمع، تكفى سهوها، وتستوجب أحدها، فالمسلم مرآة أخيه، إن رأى منه ما لا يعجبه: سدده وقومه ووجهه، وحاطه فى السر والعلانية.

فالعين تنظر منها ما دنا ونأى ولا ترى نفسها إلا بمرآة

ويقول عمر بن عبد العزيز: من إحسان الصلات بين الإخوان وواجباتها: من وصل أخاه بنصيحة له فى دينه ونظر له فى صلاح دنياه فقد أحسن صلته وأدى واجبه حقه.

وإذا أراد الناصح الخير حقا لمن ينصح له، فعليه أن ينصح له فى السر لا علانية أمام الناس فإن ذلك مما يجعله يسمع للنصح ويأخذ به.

فالنصيحة لابد وأن تكون سرا حتى تؤتى ثمرتها وإلا انقلبت إلى توبيخ وتأنيب يقول أبو الفرج بن الجوزى: وينبغى أن يكون نصحك إياه سرا، والفرق بين التوبيخ والنصيحة الإعلان والإسرار.

وقال ابن رجب: وكان السلف إذا أرادوا نصيحة أحد وعظوه سرا حتى قال بعضهم: من وعظ أخاه فيما بينه وبينه فهى نصيحة، ومن وعظه على رؤوس الناس فإنما وبخه.

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: المؤمن يستر وينصح، والفاجر يهتك ويعير.

وقال: سئل ابن عباس رضى الله عنهما عن أمر السلطان بالمعروف والنهى عن المنكر فقال: إن كنت فاعلا ولا بد ففيما بينك وبينه، فإياك أن تستدرج إلى وادى الأذى متوهما القيام بمهمة وعظ الآخرين فإن التشهير يزيل نبل الموعظة والنصيحة.

ولذلك قال الإمام الشافعى رحمه الله: من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه.

وفى هذا يقول أحد الصالحين: إن النصيحة إذا ساءت انقلبت إلى فضيحة، ومن واجبنا أن نجعل النصيحة خالصة لوجه الله ومهذبة.

وقيل لمسعر: أتحب من يخبرك بعيوبك؟

فقال: إن نصحنى فيما بينى وبينه فنعم، وإن قرعنى بين الملأ فلا.

وصدق القائل:

تعمدنى بنصحك بانفرادى ... وجنبنى النصيحة فى الجماعة
إن النصح بين الناس نوع ... من التوبيخ لا أرضى استماعه

وكان رسول الله ﷺ إذا أتى أحد فى مجلسه شيئا منافيا يقول: **ما بال أقوام يقولون كذا وكذا ويفعلون كذا أو يعطون كذا.**

ويقع كثير من الناس فى الخلط بين النصيحة والغيبة، وماذلك إلا لقصور فى فهم هؤلاء الخالطين لفقه وآداب النصيحة، ومن ثم تجد الواحد منهم إذا نصحته أن يحذر من فلان هذا، أو أن يتجنب مصاحبته لفساده، ترك ذلك النصح والذى هو بدافع حبك له ويمسك بفروع واهية لاتنم إلا عن قلة لفقه النصيحة.

وقد وعظ أحد الوعاظ الخليفة المأمون: فأغلظ عليه وعنفه، فقال له المأمون: يارجل، ارفق فقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر منى وأمره بالرفق فقال تعالى: ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

وهذا الرفق الذى يفرق بين النصيحة ويميزها عن التشفى واللوم والتانييب فمن واجبنا:

- أن نجعل النصيحة خالصة لوجه الله ومهذبة، ونعين الآخر على قبولها، ونظهر الشفقة والحنان والمحبة واللين وعلى الناصح ان يكون لبيبا، فيتحين الزمان والمكان المناسبين لإبداء النصح، فلا ينصح الغاضب حال غضبه، ولا ينصح على رؤوس الأشهاد، وذلك أن الناصح كالطبيب يعطى الدواء المناسب فى الوقت المناسب.
- لا تستاثر بالكلام دون غيرك، فتصبح كمن يحقر الناس أو من لايرى لأحد معه مكانا فالنصيحة ليست كمن يحقر الناس، أو من لا يرى لأحد معه مكانا فالنصيحة ليست كالمحاضرة، إذ هى مجال الحوار والنقاش أما المحاضر فتراه يحرص على أن لا يفوته شيء من محاضرته فى الوقت المخصص له.
- اجعل الرغبة فى الوصول إلى الهدف المنشود وهو إصلاح الحال من أقرب طريق وبأسرع سبيل غاية المنى، قال تعالى حكاية عن نبيه شعيب عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].
- احذر أن تتكلم بصيغة تشعر الآخر بأنه جاهل أو أحمق أو أنه ليس أهلا للنصح أو أنه دون درجتك الاجتماعية أو العلمية.

تلطف فى العبارة مع بشاشة وجه وطيب كلام ولين جانب، فإن المرء بأخلاقه العالية، وتأمل كيف وجه القرآن العظيم إلى التلطف فى الكلام فى كل حين وفى كل شأن قال تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ

﴿لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣]، ومن التلطف فى العبارة المناداة بأحب الأسماء أو بالكنية: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۞ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه ٤٣-٤٤] والمقصود أأن يناديه بكنيته وقيل معناه: قولا له قولا لطيفا رقيا.

- لا تكرر النصح مرة تلو مرة إلا لداعى التذكير ومع غلبة الظن بالقبول وعلى أن تكون على فترات زمنية متباعدة دفعا للملل والسأم من جهة ودرأ للعناد من جهة أخرى.

ويقول ابن حزم: النصيحة مرتان: فالأول فرض وديانة، والثانية تنبيه وتذكير، وأما الثالثة فتوبيخ وتقريع، لأن من طبيعة النفس البشرية أنها تحب ألا تبدو ناقصة أمام الآخرين وتبغض من يحاول أن يبدي بعض عيوبها بغضا يجعلها تأبى قبول الإصلاح فيها وإن كان النقد فى محله، وقد قيل لإبراهيم بن أدهم: الرجل يرى من الرجل الشيء ويبلغه عنه أيقول له، قال: هذا تبكيت ولكن تعريض.

- ومن الضرورى استخدام أسلوب التلميح فى انتقاد الأخطاء لا التصريح بها وبفاعلها، ومراعاة لأحواله وظروفه فهذا يدفعه لتفهمك والاستماع إليك.

روى أبو سعيد الخدرى ﷺ وكان مع رسول الله ﷺ قال: فدخل النبى ﷺ فرأى رجلا جالسا وسط المسجد مشبكا بين أصابعه يحدث نفسه، فأومأ إليه النبى ﷺ فلم يفطن، قال: «**فالتفت إلى أبى سعيد فقال: إذا صلى أحدكم فلا يشبكن بين أصابعه، فإن التشبيك من الشيطان فإن أحدكم لا يزال فى صلاة مادام فى المسجد حتى يخرج منه**» رواه أحمد.

إنه تلميح لا تصريح، ورحم الله الفضيل بن عياض حين قال: المؤمن يستر وينصح، والفاجر يهتك ويعير.

فهناك صنف من الناس لا يعجبهم العجب، كل ما لديهم لسان طويل، وبراعة فى النقد وهمة فى الهدم، أكبر هم هؤلاء: تتبع العثرات والأخطاء والنظر إليها من خلال مجهر مكبر مقرب فإذا الحبة قبة وإذا النملة فيل لا يلتمسون لأحد عذرا ولا يحسنون بأحد ظنا.

ويقول الإمام الخطابى: لا يزال الرجل يعيب الناس ويذكر مساوئهم ويقول: فسد الناس وهلكوا، فإذا فعل ذلك فهو أهلكهم، أى أسوأ حالا منهم بما يلحقه من الإثم فى عيبهم، والوقيعة فيهم، والنصيحة للآخرين، تكون بإرشادهم لمصالحهم فى آخرتهم ودنياهم، وكف الاذى عنهم، وتعليمهم ما يجهلونه من دينهم، وإعانتهم عليه بالقول والفعل وستر عوراتهم، وسد خلاتهم، ودفع المضار عنهم، وجلب المنافع لهم، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر برفق وإخلاص والشفقة عليهم، وتخولهم بالموعظة الحسنة، وترك غشهم وحسدهم، وأن يحب لهم مايحب لنفسه، والذب عن أموالهم وأعراضهم

فاعلم أخى:

إن أخاك الصدق من كان معك ... ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صدعك ... وبدد فيه شمله ليجمعك

فالمسلمون بعضهم لبعض نصحة، والمنافقون بعضهم لبعض غششة، وحق المسلم على المسلم أن ينصحه عندما يستنصحه والمؤمن مرآة أخيه المؤمن.

فلتحذر أخى الحبيب:

وانتبه واستمع لدقات الأجراس التى تصم الأذن منبهة ومحذرة.. إياك قبل السقوط فى الهاوية أو تدهمك الأخطار وتعصف بك العواصف والأنواء وتطفىء الأنوار وتفسد وتقطع العلاقات وتسد الطرق إلى قلوب الآخرين..

فإن أردت أن تنجو وتفوز وتصل إلى غايتك ومرادك فعليك ان تكون مرآة ناصعة لإخوانك.

***

وختاما

يحكى أن (أندرو كارنيجى) صاحب أكبر مصنع للحديد والصلب فى أمريكا، كان يتعامل فى لحظة من اللحظات مع (٤٣) مليونيرا يخدمونه فسأله أحدهم:

كيف تتمكن من التعامل مع هؤلاء فقال:

التعامل مع الناس يشبه التنقيب عن الذهب، عندما تذهب للتنقيب عن جرام واحد من الذهب، عليك أن تزيح أطنانًا من الشوائب لتحصل على هذا الجرام من الذهب .

فيجب علينا أن ننقى تعاملاتنا مع الآخرين من الشوائب التى تؤثر عليها!!

فكم من قلوب نفرت بسبب كلمة قيلت فى حقها.

وكم من نفوس تغيرت بسبب كلمة انتقاص من قدرها ومنزلتها.

وكم من صفوف تشققت وتباعدت بسبب نقد بلا فقه ونصيحة بلا أدب.

وكم من علاقات طيبة تمزقت، بسبب نميمة نمام أو مقولة مغتاب.

وكم من حق ضاع بسبب غضب فى غير موضعه.

وكم من بيوت خربت بسبب إفشاء سر من أسرارها أو هتك ستر من أستارها.

نعوذ بالله من هذا وذاك وتلك

فماذا تفعل بعد أن تعرفت على هذه الأخطار والأخطاء التى تهدد مسار حياتك وتحول بينك وبين غايتك وأهدافك؟

إن الإجابة قد تبدو سهلة واضحة! فالكل بلا شك يريد الوصول إلى القلوب، ومد جسور الحب والإخاء، ويكره مادون ذلك إلا من أصابه خلل فى عقله، أو حول فى عينه فما أدرك صحيح الطريق.

فكم تبدوا الحياة بهيجة شيقة ممتعة فى ظلال هذا الإخاء وهذا الحب، وكم يبدوا

الأحياء سعداء حين تسرى فيهم روح الإسلام وتسود فى معاملاتهم أخلاقه، إنهم حينئذ يعيشون فى سمو ماوصل إليه الإنسان إلا حين استظل بهذا الدين

فالزهر لاينفح إلا الشذا، والأرض الطيبة لاتخرج إلا النبات الطيب، فكلما إزدانت اخلاقنا ومعاملتنا بمعانى الخير الذى أغدقه الإسلام على المتمسكين به، كلما كان أقرب إلى الوصول إلى الغاية المرجوة والهدف المنشود وهو الوصول إلى قلوب الآخرين وبناء العلاقات معهم،

ويقول الشاعر: وهل ينبت الخطى إلا وشيجة وتغرس إلا فى منابتها النخل

وفى هذا الكتاب تعرضنا لبعض لهذه الأخطاء والأخطار التى تبين عظم قدرها وخطورة أثرها فى مسار حياتنا وعلاقتنا مع الآخرين، ولقد تعرضت وغيرى للوقوع فى شباكها، وعانيت من آثارها فى نفسى ونفوس الآخرين.

وإننا اليوم بحاجة ماسة لدقات تنبهنا، وأجراس توقظنا لنستفيق من غفلتنا فنراجع أنفسنا فى ضوئها، ونقوم خطواتنا، ونزن سلوكنا، ونعدل مسارنا، فينشغل كل منا بخاصة نفسه فيعمل على إصلاحها ولا يضعها موضعا يزرى بها فيه.

فإن أردت ان تنجو وتفوز وتصل إلى غايتك ومرادك فعليك

- بإحسان الظن بالآخرين، وأن تتمهل ولا تتعجل بالحكم عليهم.
- بحفظ عورة أخيك ولاتهتك ستره.
- بحفظ غيبة أخيك ولا تأكل لحمه.
- بمعرفة فضل أخيك وإكرامه وتوقيره، وإنزاله منزلته.
- بكتمان الأسرار ولا تفش سرا لأحد.
- أن لا تؤجر أذنيك للآخرين ولا تكن نماما.
- أن لا تغضب
- أن تكون مرآة ناصعة لإخوانك.

وأدعو الله سبحانه وتعالى أن تورق هذه الكلمات وتزهر فى نفس من يقرأها ثم تؤتى ثمارا طيبة مباركة فى كل حين بإذن ربها.

وما أعظم سروري لو علمت أن قارئًا أو قارئة لهذا الكتاب طبق ما فيه، فاستشعر تغيرا فى علاقاته وصلاته بالآخرين،فسطر بيمينه الطاهرة – مشكورًا – رسالة عبر فيها عن رأيه، وصوّر مشاعره بصدق وصراحة، ثم أرسلها عبر البريد الإلكترونى إلى كاتب هذه السطور:

dr_maged_r@hotmail.com

لأكون للطفه شاكرًا، وبظهر الغيب له داعيًا.

ولقد ختمت بذا الختام مقالتى ... وعلى الإله توكلى وثنائى
إن كان توفيق فمن رب الورى ... والعجز للشيطان والأهواء
فى حينها أدعو الذى بدعائه ... يمحو الخطايا ويزيد فى النعماء
سبحانك اللهم ثم بحمدكا ... أستغفر وأتوب من أخطائى

تم بحمد الله

د. ماجد رمضان

مايو ٢٠٠٩

المراجع

الجامع لاحكام القرآن	القرطبى
تفسير القرآن الكريم	ابن كثير
فى ظلال القرآن	سيد قطب
إحياء علوم الدين	أبو حامد الغزالى
أدب الدنيا والدين	الماوردى
التثبت والتبين فى المنهج الإسلامي	د. أحمد محمد العليمى
الخطة البراقة لذى النفس التواقة	د. صلاح الخالدى
أسعده نفسك وأسعد الآخرين	حسان شميس باشا
الإخلاص	جمعة أمين
جدد حياتك	محمد الغزالى
جامع العلوم والحكم	ابن رجب الحنبلى
خلق المسلم	محمد الغزالى
رياض الصالحين	يحيى بن شرف الدين
شخصية المسلم	د. محمد على الهاشمى
فقه النصيحة فى ظل الإسلام	أحمد جاد
فتاوى معاصرة	د. يوسف القرضاوى
كيف نحب رسول الله	نبيل حامد معاذ
هذا حلال وهذا حرام	عبد القادر أحمد عطا
لاتكن شبحا	د. على الحمادى

كتب للمؤلف

١. مفهوم التغيير الإسلامي

٢. مقومات الطبيب المسلم

٣. الشخصية الاجتماعية (سمات وسلوك)

٤. كيف تكون محبوبا؟

٥. من سيربح جوائز السماء؟

٦. ربانيون لا رمضانيون

٧. أروع الأسرار

٨. حكايات من ذهب (كيف تعيش وتحب وتنجح وتترك أثرا فى الحياة)

٩. حطم قيودك وعش أجمل ما فى الحياة

١٠. كيف تنشر فكرة وتقنع الآخرين

الفهرس

مقدمة ٥
تمهل ولا تستعجل ٩
لا تهتك ستر أخيك ٢٣
لا تأكل لحمًا مسمومًا ٣٣
لا تنكر فضل أخيك ٤١
لا تفش سر أخيك ٤٩
لا تؤجر أذنيك للآخرين ٥٧
لا تحرق نفســـك ٦٥
لا تكن مرآة معتمة ٧٧
وختاما ٨٩
المراجع ٩٢
كتب للمؤلف ٩٣

❊ ❊ ❊

من إصداراتنا

جوائز السماء	د. ماجد رمضان
كيف تكون محبوبا	د. ماجد رمضان
حان الوقت لتصبح	محمود خليفة
فن التعامل مع المراهقين	ناصر الشافعي
القيادة فن و مهارة	ياسر السيد

أحدث الإصدارات

للدكتور
إسماعيل أحمد الطحان

دار البيان للترجمة والتوزيع
25 ش معمل الألبان - أبو وافية
أمام مركز شباب الساحل
ت: 0176117214 - 02 24324834
البريد الإلكترونى : albayan_2009@yahoo.com

د. ماجد رمضان
أجراس الخطر
دار البيان للترجمة والتوزيع

by Usama Taha